المدرسة المصرية فى الفن والحياة

الفنون الإسلامية

أصالتها وأهميتها

حامد سعيد



دار الشروق



المدرسة المصرية فى الفن والحياة

الفنون الإسلامية

أصالتها وأهميتها

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk. Com.

حامد سعيد

المدرسة المصرية فى الفن والحياة

الفنون الإسلامية

أصالتها وأهميتها

دار الشروق

مدخل

* مازالت اهتمامات البشرية بتراثها التشكيلى اهتمامات رائدها الذهن، ومحتواها الشكل والرمز.
* ومازالت محتويات الشكل والرمز تدرك معزولة عن جذورها الأساسية.
* ومازالت الجذور الأساسية للفنون العظيمة تحفز على الإدراك الذهنى للفن.
* ولكن الحقيقة الأساسية للفنون الكبيرة حقا هى الصور الوجدانية لحقيقة الحقائق.

أصالة الفنون الإسلامية وأهميتها

هذه الفنون هى ثمرة فنون العالم القديم حيث ظهرت أقدم الحضارات، واكتشفت وورست الفنون الأساسية المختلفة، والتى بدأت كلها من بدايات صغيرة لمجتمعات صغيرة متناثرة متنابذة، لديها النزوع إلى التغلب على هذا التناثر والتنابذ، لتكوين وحدات أكبر، يعود إليها التناثر والتنابذ مرة أخرى ولكنها تنزع - فيما بعد فى عصور الصحة والعنفوان - إلى التوحد والتكامل والسلام.

هذه الفنون ذات العراقة الفريدة، وجدت وحدتها وتآزرها وسموها فى العصور الوسيطة، متحققة فى فنون الإسلام.

والفنون الإسلامية العربية، وليدة رؤية إلى الكون والحقيقة والحياة تتمتع بخصوصية وامتياز، ولكنها جزء من الرؤية الإسلامية الأشمل، التى هى بدورها مظهر خاص متميز من حالة أعم، هى الرؤية الدينية التى ينأى عنها العالم المتقدم اليوم، ويقيم بينه وبينها الحواجز والسدود، وإن كانت بوادر العودة إليها تومض هنا، وتبرق هناك.

والرؤية الدينية هى رؤية الإنسان الكل - بكل مواهبه - للكل، كل الوجود، وسع التفتح له، ينبثق منها وعى بالقدسية والمعنى، قدر رتبة ذلك الوعى.

والرؤية الدينية الإسلامية ترى الله - حقيقة الحقائق - هو الحق. وترى الحياة الحقة فى إسلام الوجه لله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء.

ومن خصوصياتها:

(أ) التنزيه: بالعزوف عن الوقوف عند المحدود ودون الغاية المثلى.

(ب) العالمية: فهى للناس كافة، وأبعد ما تكون عن الإقليمية والقبلية والعنصرية.

(جـ) الشمولية: فهى للحياة من المهد إلى اللحد، إلى الجنة والنار والوصول إلى الله.

(د) الرؤية الحسابية الهندسية للكون: الذى قدر فيه كل شىء وأتقنه من وراء الخيال.. ميزان وحساب، وتقابل بين ثواب وعقاب، وجنة ونار، وملائكة وشياطين وسائر الخلق.. وكل شىء عنده بمقدار.

(هـ) التعلق بالسماء: مع عشق الحياة على الأرض دون تعلق بها.

(و) النظر إلى الطبيعة صنع الله: ﴿الذى أتقن كل شىء﴾﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده﴾.

ومما يحجب رؤية أصالة الفنون الإسلامية بعامة:

(أ) ضحالة إدراك معنى الفن، الأمر الذى يرتبط به حتما تقديرنا لأى فن من الفنون: فإذا كنا ننظر إلى الفن فى ضوء الفن الأوروبى الأكاديمى الراكد المعاصر. أو فى ضوء الفن المسمى بالحديث والذى يشمل هو الآخر جانبا أكاديميا راكدا.. إذا كنا نعتبر الفن محصورا فى هذا الأفق فحسب، فقد سجنا أنفسنا فى حيز ضيق، وأفق محدود، بينما عالم الفن عالم واسع بغير حدود.

(ب) ودرجات الوعى بالحقيقة من وراء كل مشهود، هى الأخرى قد تكون من الحجب التى تسجن القلب فى نطاق محدود من المعنى.. وعالم المعنى فى مجال الحقيقة واسع مطلق بغير حدود. فإذا كانت نظرتنا مقيدة بمعنى الفن الذى نقنع به، أو بمعنى الحقيقة الذى نقف عنده ونتقيد به، وكنا قد اتخذنا من ذلك منطلقا ننظر منه إلى واحد من الفنون الكبرى، فإننا بذلك نكون قد ظلمنا هذه الفنون وظلمنا أنفسنا على حد سواء.

(جـ) وإذا كنا قد هبطنا إلى ما هو أدنى من ذلك، وكانت السطحية هى دليلنا، فمن الواضح أن قدرتنا على التقدير والحكم تفقد مسوغاتها. ومما يقف حائلا دون رؤية أصالة تلك الفنون، الفكرة الغائمة عن معنى الأصالة، والتى تفرض أن الأصيل فى الفن هو الذى يتولد ذاتيا.. ذلك

المفهوم الذى انتهى عهده فى علوم الحياة، ومازال متبقيا منه أثر فى دائرة الفنون.

لا ينشأ كائن حى نشأة ذاتية، إنما يتولد من أصول، ولايمنع هذا أن الذى يتولد يكون كيانا جديدا وأصيلا.

كذلك لا يتولد الفن ذاتيا، إنما يتولد من أصول، ولايمنع هذا أن يتولد الكيان الجديد الأصيل.

(د) ومما يقف حائلا دون تفهم كنه ومضمون هذه الفنون الإسلامية النظر إليها من مفاهيم فنون أخرى، كما هى الحال التى مازالت شائعة لدى الكثيرين من تفسير الفنون الإسلامية على أساس الإباحة والتحريم، وهو تفسير ينشأ من الاستكانة إلى النظرة على الوضع الشائع فى الفنون على أنها فنون جميلة وفنون تطبيقية، وأن الفنون الجميلة قوامها فنا التصوير والتجسيم، ثم النظر إلى ما ليس نحتا أو تصويرا على أنه زخرفة. وتعتبر الفنون الإسلامية وكأنها كلها فنون زخرفية، وهذا غير صحيح.

إن سير العملية الفنية عبر التاريخ، ابتداء بالتحضير لها بالبدايات الأولى من قبل أن يبدأ التاريخ، وانتهاء بالغاية التى من أجلها ينشأ الفن الكبير، هى الهادى إلى بداية الطريق: طريق الإدراك السوى للفنون: وسائلها وغاياتها.. طريق الصحبة للتعرف على المكنون. أما الطريق نفسه فصعب وطويل. فكلما تجدد الإدراك تجدد المعنى. وكلما تجدد المعنى تجدد السعى ولزم أن يتجدد الإدراك، حتى نصل إلى أفق ما يعجز عنه الإدراك، ونشارف حظائر القدسى المطلق حيث يمتنع الكلام.

وربما كان هناك سببان ضمن ما يفسر اهتمام العالم المعاصر بالفنون الإسلامية ويساعد فى الوقت نفسه على التعرف على هذه الفنون، هما:

(أ) أن الفن ليس من الضرورى أن يكون تصويريا بمعنى تشخيصى.

(ب) أن العصر أصبح ـ لدى الطليعة فيه من جهة ولدى كثير من الناس من جهة أخرى ـ وبه ظمأ إلى عالم الروح والمعنى.

إن الأساس الذى تقوم عليه أصالة أى فن من الفنون، وليس الفن الإسلامى وحده، ولا الفن التشكيلى وحده، بل كل الفنون على الإطلاق، بل كل نهضة فى

تاريخ البشر ـ هو رؤية أصيلة وجديدة للوجود. وهذا على وجه التحديد هو سر الأصالة فى فنون الإسلام وما ظهر فيها من سمات مغايرة لما هو شائع ومعتاد. إن الرؤية الجديدة لمعنى الوجود على الإطلاق، ومعنى الحياة على الإطلاق ومعنى الإنسان على الخصوص، الرؤية الجديدة لهذه الأمور التى أتى بها الإسلام هى جوهر أصالة هذه الفنون.

ولما كانت الرؤية الإسلامية تعتمد فى الأساس على الكشف القلبى لسر الوجود ﴿الذى ليس كمثله شىء﴾، كان التجريد للفنون الإسلامية أساسا.

وكانت القداسة والاستشعار بها أساسا.. وكانت الوحدة الرابطة بين أطراف الأرض التى انتشر عليها الإسلام وأشتات الشعوب التى استضاءت برؤيته.. كما كانت ملامح أخرى تجد تفسيرا لها فى هذا الإدراك القلبى لسر الوجود فى نور الإسلام ومنها وحدة الشهود التى يعمل الفن الإسلامى على تركيبها فى القلب الودود، ويعبر عنها ذلك الاستغراق فيما يسمى «الأرابسك» الذى يرمز إلى تداخل وترابط وتآزر وتدابر وتماثل عناصر الوجود. وإيحاؤه بلا محدودية آسرة.

كما أن عالمية الدعوة للناس كافة، ووحدة البشر فى الرؤية الإسلامية هى إحدى دعائم سمات الموضوعية الأصيلة فى فنون الإسلام التى لا تصدر عن الهوى، ولا عن نزوات الأفراد، ولكنها تصدر عن وجدان مستجمع للحياة، متطلع إلى أفق أعلى يستهديه.

كما كانت دعوة الإسلام للاحتفال بالدنيا والدين فى وقت معا تفسيرا آخر لبعض ملامح هذا الفن الذى انشرح صدره للحياة الدنيا وتطلع إلى الحياة الأسمى، فأضفى على الحياة فى كل مرافقها وأدواتها وجنباتها ذلك الأريج العجيب وأكسبها ذلك الإيحاء المنعش الرحيب.

لقد كانت الرؤية الإسلامية هى الجامعة بين شعوب الأرض التى آمنت بالإسلام ـ العربى منها وغير العربى ـ كانت هذه الشعوب تتنسم عبير الرؤية الإسلامية بما فيها من بساطة أخاذة، سرها التوحيد والتنزيه، وعمق لانهائى، ودعوة غير محدودة بجنس أو طبقة، رؤية تكشف عن آيات الله فى الآفاق والأنفس.

كانت هذه الشعوب المؤمنة والمستبصرة بهذا الإيمان تمنح تلقائيا أعمالها ذلك

الأريج، وتحيل كل ما تجمعه أو تحصله من علوم وفنون فى الحياة إلى ذات العبير الإسلامى الذى ما زال إلى اليوم يجمع بين هذه الشعوب المتباينة الأجناس.

للرؤية الإسلامية شغف بالتفكر فى مخلوقات الله عز وجل، وتدبر القرآن الذى يضرب المثل تلو المثل فى التأمل فى الحياة.. لهذا، كان أثر هذا الولع بتأمل، لا نقول المرئيات، بل كنه المرئيات، هو إحدى السمات التى يتميز بها الفن الإسلامى - العربى وغير العربى - عن غيره من فنون الأرض قاطبة:

يتوحد فيها مع الفن الإلهى فى الخلق الكونى دون تقيد بهيئة خاصة مرئية لشيء ما.. بل هو توحد مع ذلك النمط الإلهى فى هيئة البناء وعضونته فى إنشاء المنجزات الفنية الإسلامية.

إن منجزات الفن الإسلامى هى ثمرات هذه التأملات فى الكون وليست ثمرة العزوف عن المرئيات كما يقال.

إنها تمثل عالما ثانويا من خلق الإنسان بهدى من ذلك الإيمان الإسلامى المتفرد، والذى لا ينى يدعو إلى:

تدبر المخلوقات فى الأنفس وفى الآفاق..

وإسلام الوجه لله، والعمل بهديه.

والإسلام يدعو إلى أمر غاية فى الأهمية من الناحية الفنية: هذه الدعوة خاصة بالعمل، وإتقان العمل، والتفانى فى التجويد، لأن الله جميل يحب الجمال، وهو بديع السموات والأرض، وهو الخالق البارئ المصور.

أربعة مداخل إلى رؤية الأصالة

هناك مداخل أربعة إلى رؤية هذه الأصالة واضحة وناصعة :

● **المدخل الأول:**

اعتبار هذه الفنون ذروة تكامل رؤى العالم القديم، منذ العصور الحجرية إلى وقتنا هذا : كيف تكامل السعى من البدايات المبدعة الأولى، وعبر الحضارات القديمة والوسيطة حتى روائع الفن الإسلامى . . وذلك لكى تبدو الأصول والجذور متصلة بالزهور والثمار . . فإن الصناعات الأولى فى العمارة والخزف والمعادن والنسيج والخشب والكتاب كل ذلك كان فيضا متدفقا يتزايد دفعه، يزهر ويثمر، ويذوى منه ما يذوى، ولكن دفع التيار وتجدد روافده لم يتوقفا أبدا حتى أتيح لهما التمام فى نور الإسلام الذى انشرح صدره للتقبل والاحتواء.

إن المعابد القديمة بعمدها ودعائمها وصحونها وأروقتها ومجازاتها لتستشف فصلات منها من خلال المساجد والعمائر الإسلامية دون مطابقة، ولكنْ نمو نحو هدف أسمى . .

وكذلك الحال فى كثير من مفردات الفنون، فقد تطور الوجدان، وسما بهذه الفنون لتوائم الوجدان الجديد . . وإن كانت بعض الفنون فى مشخصاتها المألوفة قد قل تمثيلها فى منجزات هذه الفنون الإسلامية مثل النحت والتصوير، إلا أن القيمة النحتية والقيمة التصويرية فى عناصرهما الأساسية لا تغيبان عن هذه الأعمال، بل هما حقيقة وواقع لا يقلان فى الحقيقة والواقعية عن غيرهما من الفنون، ذلك أن الحياة كلها أصبحت فى هذا الفن صورا ومنحوتات لا تنسى، ولكنها فى هيئة مجردة لا انفصام بينها وبين الحياة اليومية ذاتها.

• المدخل الثانى:

النظر إلى الشخصية التى يدعو إليها الإسلام كواحدة من الشخصات الأربع التى أنجزها السعى البشرى منذ العصور الأولى وهى :

(أ) العالم القديم : حيث قامت أقدم الحضارات وتواصل السعى حتى كان مهبط الديانات السماوية وكان الإسلام .

(ب) والأوروبية : حيث انتقل النور من هذا العالم القديم إلى الغرب الأوروبى عبر اليونان فالرومان ثم العصور الوسطى فالنهضة ثم العصر الحديث .

(جـ) والهندية : فى شبه القارة متعددة الأعراق و اللغات والديانات .

(د) ثم الصينية : وذلك الأفق الأقصى والذى يشكل الشخصية الإنسانية الرابعة .

فى ضوء هذه المقارنة تبدو الشخصيات الثلاث غير الغربية وقد ثبتت كيانها فى أعماق الوجود القدسى واستمسكت بجذورها فى رؤى كونية يشغل فيها الإنسان كونا من الأكوان وليس المركز والغاية .

• المدخل الثالث:

حيث تتفرد الرؤية الإسلامية بالنبوّ عن الصورة والتعلق بما يعلو على التشبيه ، تمسكا بالتوحيد والتنزيه على النقيض من الهندية والصينية حيث يزخر الأفق ببحر متلاطم من الصور .

• المدخل الرابع:

أخيرا التحرر من الرؤية الأوروبية للفنون والجماليات عند النظر إلى فنون العالم القديم وذروتها فى المسيحية والإسلام وفنون الهند والصين ، إذ إن لكل منها جمالياتها الخاصة بها .

ويتبقى من جماليات الفنون الإسلامية ـ مرصودا فى المراجع ـ جماليات الخط العربى : «القلقشندى» . وجماليات الفن بعامة كما جاءت فى «إخوان الصفا» . ولابد أنه كان هناك لكل فن من الفنون جمالياته الخاصة التى ربما أمكن للبحث أن يبين عنها فى المستقبل .

ومما لاشك فيه أن النظر من هذه المداخل الأربعة سيفيد الارتفاع فوق المسائل الجزئية التى قد تحجب عنا الرؤية الشاملة للكل الحى النابض بالروح الأصيل الذى إليه ـ آخر الأمر ـ يعزى هذا الخلق الفنى المتفرد بين فنون الأرض.

هذا ونحن لا نتناول البحث فى أصالة الفنون الإسلامية من زاوية المؤرخ والأثرى لأن هذا ليس اختصاصنا، ولكننا نتناول هذا الموضوع من زاوية:

الإنسان الذى يبحث مشكل الوجود..

والفنان الذى يبحث مشكل الخلق الفنى..

والمسلم الذى يعنيه بالدرجة الأولى روح الإسلام.

* * *

٭ عن الفن الإسلامى

الفن الإسلامى تعبير عن أمل. هذا الأمل هو رسالة الإسلام، والإسلام هو تحقيق المبدإ الأسمى. قمة القيمة فى حياة الإنسان، إسلام الوجه لله.

وحدة البشر وتضامنهم فى تحقيق هذا الأمل..

رؤية الكل كمشير إليه..

هذه هى الحياة الحقة.. الحياة الواعية فى كل ما نفعل ونصنع بذلك الوجود السارى بالغ الكمال، الواحد المقدس، الذى ليس كمثله شىء.

الإسلام هو فن الحياة المتكاملة والحرة بتوجيه الله.

وأن ننظر إلى هذا الفن من زاوية فن آخر خطأ ننصح بتلافيه. فلكل فن نوره الخاص به، ومنظوره الذى يستوحيه لكى يُرى الرؤى المناسبة له.

وفن له مثل ما لهذا الفن من عمر واتساع أفق وعشرات آلاف العاملين لابد أن تكون له ذاتية خاصة به يكشف عنها للمترددين إليه، الراغبين فى توسيع خبرتهم بآفاق حياة الإنسان وممكناته التى لم تستكشف بعد.

والفن الإسلامى تجربة فى الحياة أخذت للآن أكثر من ألف عام وشغلت حيزا كبيرا من الأرض.

أن نقسم الفن إلى فن جميل، وفن تطبيقى، ومجرد وغير مجرد، إلى تصوير ونحت وزخرفة، جائز طالما هو مفيد، ولكنه ليس ضروريا أو مطلقا.

فالفن الإسلامى يجمع بين هذه الأقسام عادة فى عمل واحد وهذه إحدى نواحى شخصيته ومعناه.

هو فن تمازجت فيه مقومات هذه الأقسام فلا انفصام بينها.

واهتمام عصرنا الحاضر بالفن معروف ويكاد يفوق اهتمام كل العصور من حيث مدارس الفنون ومعاهد تاريخها، والمجموعات الفنية، والمتاحف، والمطبوعات من كتب ودوريات ونقد، وغير ذلك من الكتابات التى تحفل بالفن، كل هذه أمور لها قيمتها، ولكن عصرنا هذا عصر بلا أسلوب فنى، الفن فيه طفيلى على الحياة.

أما الفن الإسلامى فكان ممتزجا بها: كان كيفها وطريقها وعدتها.

وما يسمى عمارة حديثة، وأثاث حديث، ومصنوعات حديثة شاهد على غياب الأسلوب أكثر من شهادته على وجوده. هى شواهد على الفقر النفسى للإنسان المعاصر وسط غناه المادى وقوته. ويتضح هذا عندما نقارنه بفنون العصور الكبرى. وشواهد أخرى نجدها فى سلسلة النزعات والحركات التى عادة ما تدور حول أنصاف حقائق غير مهضومة تتعاقب، يتلو بعضها البعض أو يعاصره ليلقى به جانبا عندما يحل دور النزوة الجديدة، وكلها فى مجموعها لا تُكَوِّن أسلوبا للعصر.

والسبب فى غياب الأسلوب هو ظاهرة عدم القدرة على التكامل التى تبدو كما لو كانت طابعا أصيلا للعصر.

- ليس لعصرنا رؤية متكاملة لمعنى الحياة رغم العلم ووسائله المذهلة.

والأسلوب هو حكمة حياة مرئية..

بصيرة مكشوفة للبصر..

نظام جديد من القيم يتعشقه الإنسان ويكرس حياته لتحقيقه. وأن نقبل على أسلوب لمجرد المتعة أو التسلية لايتيح لنا محتواه الحقيقى.

الفن الكبير مجاهدة، استكشاف لأعماق الحياة، ليحقق الإنسان إنسانيته وسع طاقته، ويتجرد من آلية الحياة ورتابتها وسطحيتها.

وفى الفنون الكبيرة، مدخر لنا حقائق بصيرية عن الحياة اللائقة بالإنسان، يصعب على النظم الفلسفية التعبير عنها:

هذه البصائر حية فى طرق الحياة وكيفيتها. والأسلوب هو ذلك المنهاج فى الحياة حيث تكتنز بصائر ذات قيمة.

فنون الهند وفنون الصين تكافىء الباحث عن كنوزها بما حققته تلك التجارب الرائعة فى فن الحياة.

وهدف الإسلام الهداية إلى أسلوب الحياة الجديرة بالوجود البشرى. وأمل الفن الإسلامى أن يحقق عمليا هذا الأسلوب، بل هو رمز لهذا الأمل.. هو حصاد تاريخ كما أنه وحى للمستقبل.

ومن السهل أن نسىء فهم ظاهرة الدين ولذلك طرق متعددة. وينجح الفن الدينى عندما يتمكن ـ محدودا بوسائله الخاصة ـ من أن يعبر عن جوهر الدين الذى هو أمر تجربة قابلة للتحقيق. وهذا ما حاوله الفن الإسلامى.

وجوهر الدين الإسلامى هو الوعى بذلك المبدإ الأسمى، اللامحدود كما يصفه القرآن وتشير إليه الأسماء الحسنى. هذا اللامحدود هو مركز الجذب لدقائق الفن الإسلامى وكلياته والوعى به هو وظيفته الأولى، كل منجزاته تتعطش إليه.. وتدل عليه عندما يصيبها التوفيق والنجاح.

وأن يتوحد الإنسان فى داخل نفسه وفى الخارج طوع هذا المبدأ الأسمى: أن يوائم بين الظاهر المرئى والمستور الخفى، بين الأنيس والقدوس.. البطولى والصوفى.. المصنوع والطبيعى هذا كله ومثله هو ما هدف إليه الفن الإسلامى فى سعيه الحثيث نحو تحقيق أمل الإسلام فيه.

ولكى نرى هذا، لا يليق أن نجزئ ونشرح العمل الواحد، ولا أن نرفع الجزء من مكانه من الكل. فالفن الإسلامى يكون أكمل كلما جمعناه فى عضونته، بينما تنكمش قيمته وتتضاءل معانيه كلما جزأناه.

فارق كبير بين المتحف حيث الأعمال مجمعة ككلمات من كتب، وأسطر من قصائد، وبين الأعمال نفسها كما هى قائمة فى الحياة: فى المبنى والحى والمدينة، بل فى سياق التاريخ الطويل، إذا أتاح لنا الدرس والصبر والخيال أن نحوز هذه الرؤية العجيبة لتجربة من أهم التجارب التى أجرتها شعوب عديدة ذات عراقة فى التاريخ على سطح هذا الكوكب الصغير.

أهمية الفن الإسلامي

لم يحدث أن تَرَابَطَ العالم كما هو مترابط اليوم. ولكن.. لأى غرض يحدث هذا الترابط؟

عندما يحين الحين وينقضى صلف الإنسان..

وتدرك وحدة البشر..

فإن رسالات الديانات الكبرى التى رأت وأعلنت هذه الحقيقة ستصبح حاجة ملحة.

و عندئذ، فإن الفنون التى نجحت فى التعبير عن هذه الرسالات ستدرس على وجهها الصحيح.

ولكن الإنسان اليوم يعانى من تعصب تجاه الدين. وظاهرة التدين فى حاجة إلى تصفية وتنقية وتمحيص.

وفى مقدور الفن الإسلامى بما فيه من وحدة وتنويع أن يشرح كيف تُكوِّن ثقافة عالمية دون أن تمحى فيها فردانية الزمان والمكان.

وسيصبح ـ كظاهرة ثقافية ـ مثالا للكيفية التى يمكن بها الجمع بين الأخذ والعطاء لصالح الجميع.

إن أهم إنجاز نجنى ثماره عندما يتاح الإدراك الصحيح للفن الإسلامى، هو أهمية وحدة البشر وأهمية التكامل للنفس الإنسانية، وما يتلو ذلك من فضل.

وهذا يمكن تحقيقه عندما نرى:

١ ـ السلام والاستقرار والوئام فى أعماق النفس الذى نجح الفن الإسلامى فى الإيحاء به.

٢ ـ البهجة فى العمل الجماعى، الأمر الذى تجلى فى حب الإنشاء وحب الوصول بالعمل معا إلى الكمال.

٣ ـ القدرة على التنويع مع الحفاظ على وحدة الصف والحرية فى القبول دون تبعية ذليلة أو شذوذ.

٤ ـ التحقق من أن الحق واحد وقدوس من خلال عملية العمل الجماعى، الأمر الذى يجعل هذه الرؤية للحق ممارسة بالفعل.

٥ ـ القدرة على تحويل الحقيقة إلى حلم، والحلم إلى حقيقة.

٦ ـ نعمة إدراك السعادة عن طريق العمل.

٧ ـ وأن تثرى ما تصنع بالعمل غير المبتور.

٨ ـ أن تنال الخلاص على يد الرائع الذى تسهم بيدك فى إبداعه.

٩ ـ أن تجعل من الحياة فنا وأن تجعل من الفن حياة مهما كان المصنوع.

١٠ ـ أن تجلو فى الفراغ حضرة القدوس الذى تراه بصيرة الخواص ويتيح الفن رؤيته لكافة الناس.

هذا من جدوى الفن الإسلامى.

ولكن ما أهمية هذا الفن للعصور القادمة؟

إذا كان ما ذهبنا إليه صحيحا، وأن هناك سمتا سويا لحياة الإنسان، لا يتيسر له دون أن يرى الحق. . وأن الفن الإسلامى يساعد على القرب من هذه الرؤية، فإن الأمل أن يتاح للعصور الأخرى أن تستكشف الحق من جديد، وتتجدد لها الحياة. وترى هذه البصيرة ـ بالحق ـ أن قوام العالم هو «الأسمى»، وأنه بغير هذا القوام تتهاوى الحياة أشتاتا وينحل الإنسان. . وأنه عندما يتحطم سلم القيم، تتناثر الحياة الإنسانية، وتصبح الفوضى هى النتيجة المنطقية.

وبغير التحقق من هذا المبدأ الأسمى الذى يساوى بين الناس فوق الفوارق، فإن الإنسان يكون عدوا للإنسان وينقسم على نفسه.

وإذا غاضت هذه الرؤية تفقد الدنيا قيمتها وتصبح الطبيعة لنا بلا معنى بقدر ما نبتعد عن هذه الرؤية.

وما لم نحقق فى ذواتنا هذه الرؤية، وننسق حياتنا تبعا لها، فلن نعرف السلام.

وكان من عظمة الإسلام أنه فتح صدره لمختلف الحضارات من حوله، شأنه فى ذلك شأن كل موقف خلاق متفتح، كما أنه عندما أعطى عطاءه كان نسيجا وحده كما ينبغى لكل عطاء أن يكون.

فإذا نجحنا فى توسيع خبرتنا بكل من الفن والحياة نتيجة لاستيعابنا مختلف الثقافات الفنية التى يحفل بها التاريخ، فإننا سنكون أكثر معرفة بأغوار النفس وأغوار الحياة.

ونتيجة لهذا ستفوق على إقليمية العصر، ونكون أكثر قدرة على تقييم وتقويم ثقافة الإنسان المعاصر.

وسنسأل أنفسنا: ألا يمكن أن يوجد علم آخر بمفهوم مختلف عن العلم المعترف به اليوم دون ما تعارض بين العلمين ولكن يمايز بينهما اختلاف الطريقة واختلاف حقل التجربة! علم جديد تتحقق به النفس من ممكناتها حتى التمام، مستفيدا من محاولات العصور فى أنحاء العالم، ومستندا إلى المنجزات الفنية للثقافات العظمى كوثائق نفسية.

ستتبين أن العالم يدعونا إلى قراءة جديدة له، أمل أن يتحقق أكثر وأكثر من المعنى والقيمة وستكون الفنون التى حفلت بجوهر الحياة هى مفاتيح الرؤية. وينبعث تذوق اللامحدود الموجود فى ذواتنا طوال الوقت كوعى جديد مشترك.

وسيحيا العالم الميت الذى يحيط بنا، ويتواصل مع منابع المعنى التى لا حد لها، وسندرك وقتذاك المغزى الحقيقى للعمل الرشيد باعتباره الطريق إلى تحقيق السلام.

* * *

سر أصالة الفنون الإسلامية

إلى الآن بدأنا بشرح المعوقات دون رؤية أصالة الفنون الإسلامية ناصعة.

وبعد ذلك حاولنا شرح ماهية الفن الإسلامى وأشفعنا ذلك ببيان أهميته للناس اليوم وللمستقبل إذا أردنا لحياتنا ألا تكون طافية على السطح تسيرها الأهواء حيث تشاء، بل أردنا أن تكون لنا حياة ثابتة الجذور فى أعماق الوجود.

لهذا من الممكن بعد هذا التمهيد أن نبين سر هذه الأصالة: أصالة الفنون الإسلامية. ومدخلنا إلى ذلك قد يبدو خروجا عن مألوف تناول مثل هذه الموضوعات، ولكننا نعتبره دخولا فى الصميم: إذ إن الإسلام دين الفطرة. وهناك علاقة كبيرة بين مفهوم هذا الكلام، وصميم سر أصالة الفنون الإسلامية.

فإذا عدنا إلى هذه الفطرة الأولى للإنسان فى تاريخ البشرية، وكما يمكن للفن أن يكون شاهدا عليها، وحاولنا أن نتلمس فيها ولو الجرثومة الأولى أو البادرة الأولى للمعنى الأساسى للإسلام فإننا سنجد فى العمل الفنى الأول للإنسان الأول والمتبقى لنا منه أمثلة عديدة ومشهورة، لو أننا تلمسنا فى هذه البقايا ما يمكن أن يمت إلى شيء من الإشارة إلى المعنى الأساسى للإسلام. فإننا نكون قد بدأنا الإمساك بالطرف الأول للخيط.

ذلك أن هناك كلمتين: الوحدة.. والتكامل.

فى هاتين الكلمتين يكمن جذر أساسى من جذور العقيدة والرؤية الإسلامية فى الفطرة:

فى البلطة الظرانية التى يمكن أن نسميها بذرة الفن التشكيلى نلمس ذلك التكامل وتلك الوحدة.

تنشد الفطرة البشرية الوحدة كما تنشد التكامل. وهى لا تفعل ذلك بغير دافع اللهم إلا الفطرة ذاتها: الفطرة ذاتها تعمل على نشدان الوحدة وعلى السعى نحو التكامل.

وإذا قفزنا من ذلك الماضى السحيق الأول للإنسان إلى الفن الإسلامى كما هو متمثل فى بعض بواقيه، واخترنا الأطباق النجمية، واخترنا من هذه الأطباق النجمية الصورة الرائعة لها المتمثلة فى باب جامع ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة فإننا نجد هذه الأطباق النجمية الرائعة وقد احتوت على - أو كأنها قد احتوت على - عقد يستدير حول مركز إشعاع واحد، هذا العقد مكون من حبات، كل حبة منها يمكن أن تستشف فيها ذكرى أو ما يشبه الذكرى لذلك العمل الإنسانى القديم: البلطة الظرانية، وقد اتجهت أطرافها المدببة مشيرة إلى مركز واحد.. أو كأنها كلها قد انطاعت لهدى يؤلف بينها ويبعث إليها بنوره.. بتلك الصورة من مجموعات أمواج النجوم المتدافقة من المركز.

فى هذه الأطباق النجمية صورة أخرى للوحدة والتكامل تشكيليا، ولكنها تحتوى شيئا آخر غاية فى الأهمية لمعنى الإسلام.

ذلك هو الإشراق من مركز واحد: فى الإمكان أن نعتبر هذه الأطباق النجمية تعبيرات عن إشراقات ضمن ما يمكن أن نعزوه إليها من إيحاءات قد توحى بها إلى المتأمل الودود.

ونعود مرة أخرى إلى التاريخ ونعبر أقدم العصور إلى عصور أحدث حيث بدأ الزرع والضرع.

وكما حاول الإنسان الأول أن يتوحد مع طبيعة الحجر فى معالجته له فى تشكيل البلطة الظرانية، ليوحده مع دخيلة حاجته المادية والمعنوية، فإنه فى عالم الزراعة فى العصور الحجرية الحديثة قد حاول نفس الشىء مع العالم من حوله حيث تناول التربة والنبات والماء والسماء، تتعاون وتتكامل كلها مع حاجته المادية والمعنوية على حد سواء: إنه يطلب الأمان والسلام والوحدة والتكامل.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى الفنون الإسلامية فى أطباقها النجمية وفى أمثلتها المتعددة نرى تلك الأشكال الشبيهة برءوس السهام وقد نضرتها الأشكال النباتية، وجمعت بينها تلك الفيوضات النورانية أو تلك الفيوضات المائية.

لكم توحى هذه الأطباق النجمية بعملية الصلاة:

تجمع بين قلوب المسلمين سُجَّدًا، متجهة إلى بيت واحد. وانبثاقهم من ذلك المركز بعد التوجه إليه فى صورة تلك الانطلاقات الإشعاعية التى تحتضنها الفيوضات النجمية. وبين هذه الأطباق النجمية بعضها البعض لا يوجد خواء، بل ترابط وتضافر، وأخذ وعطاء، تعبر عنه بطرق شتى مختلف الأمثلة المتعددة، والتى تزخر بها فنون الإسلام. ذلك كله وفق نظام وتقدير رائع وأخاذ: الإشراق.. والوحدة.. والتكامل والترابط.. والانتشار

هذا بعض مما أملاه ضمير الإسلام للفن الإسلامى، ويمليه الفن الإسلامى إلى ضمير الناس، وذلك فى جو من السكينة عجيب، ومن السمو تارة والجمال المحبب تارة أخرى، ومن أنس يريح أعصاب الناس.

ذلك يفعله الفن الإسلامى بتجريده الذى لا يتطلب من المتودد إليه أية خلفية أسطورية قد تفصل بين الناس، أو تفصل بين بعض الأعمال الفنية من حضارة،

وقلوب المتوددين إليها من حضارات أخرى تختلف معها فى الماعون الثقافى. هذا النزوع التجريدى الذى يجمع بين الاستقامة والانحناء، وكأنه يجمع بين صفاء وحدة البللورة والنور، وبين رقة وحنان النبت والماء.. الذى يجمع بين السلوك المستقيم، والشعور الرحيم.. والذى يستمد هديه من مركز إشراق يعود إليه ليخرج منه جديدا ومتجددا فى فيوضات تتدافع أمواجها إلى غير انتهاء.

إن هذه التنويعات من الأطباق النجمية، والنجوم التى يحفل بها أيما احتفال الفن الإسلامى تدل على عشق السماء مصدر الإشراق: تلك المآذن والقباب والشرفات تشير إلى ذلك الأفق الأعلى، هى وهذا الذخر اللانهائى من التصميمات النجمية والنباتية التى تنشد بدورها النور حسب قدرتها، ذلك كله يتصل بسبب واحد هو السعى نحو الوحدة والتكامل: الوحدة مع الله..

والتكامل مع الكل الشامل على المستويين المادى والمعنوى.

إن ذلك الذى تدعو إليه الفطرة على المستوى الفنى من وحدة وتكامل، إن هو فى الحقيقة إلا أثر من آثار الفطرة الدينية التى جبل عليها الإنسان أصلا، من توحيد وتكامل فى خدمة ذلك الواحد.

كل نشاط فنى إن هو فى الحقيقة إلا استجابة لتلك الفطرة أما ما يحجب حقيقة ذلك الأمر فهو تارة ما قد ينشغل به الإنسان من واسطة تتكثف لتصبح حاجبا وعبثا. أما إذا شف الأمر وصفا فإنه ذلك العمل الذى تتحقق فيه الوحدة على أسماها والتكامل على أتمه ليصبح عملا فنيا يمت إلى ذلك الأفق الأعلى.

وهذا على وجه التحديد هو موضوع أصالة الفن الذى تميز على سائر فنون البشر بذلك الصفاء والنقاء والتجرد والإشارة إلى ذلك الذى يسمو على الصورة:

هو ضمير الفن الإسلامى يستجيب لهدى الإسلام.

ويتمثل الإسلام فى ثلاثة:

القرآن: وهو مثال إلهى للعمل الفنى.

والطبيعة: الخلق فى الإنسان ومن حول الإنسان وهو أيضا مثال إلهى للخلق على مستوى الوجود.

والسلوك الإسلامى كما مثله النبى ﷺ: الذى كان سمته ذلك الكتاب الذى ترجم بدوره عن مكنون الخلق فى صورة فنية بليغة وبالغة البلاغة.

هذه الفطرة تجمع ما بين البساطة والعمق، وهى غاية فى الصعوبة من جهة وغاية فى السلاسة من جهة أخرى.

وكما يقول ابن الفارض فى التائية «نظم السلوك»:

ولو واحدا أمسيت أصبحت   واحدا منازلة ما قلته عن حقيقة

إذا تكامل الإنسان خلقا وأصبح واحدا متكاملا، فإن رؤية الواحد تصبح طوع بصيرته.

والفن الإسلامى لغة تشكيلية مغروسة فى النفوس: فطرة أخرى يستخدمها القلب البشرى لتخاطب عبر الزمان والمكان والعصور والقلوب.. توحد.. وتكامل وتتوحد.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى نقطة البداية.. إلى ذلك الشكل الكمثرى الذى نراه فى الطبق النجمى، وصورة الإناء الإسلامى، ورءوس المآذن المنطلقة إلى السماء، وتلك الوحدات الإسلامية التى تمثل ذلك الشكل الذى على صورة شجر السرو أو ما يشبه ذلك فإننا نتعرف عليه فى صورشتى على مثل ما نتعرف على حروف الهجاء ومقاطع الكلمات فى ألفاظ شتى: فإن ما يبدو فى الفن الإسلامى من نزوع فردوسى فى الشق غير العربى، ومن نزوع هندسى فى الشق العربى لهو فى الحقيقة تعبير عن توءمين ينزع كل منهما إلى التعبير عن حقيقة واحدة: هى التطلع إلى النور، أو ما يرمز إليه النور. لأن الله هو نور السموات والأرض.

ولكى يكون مزيد من الوضوح، ومزيد من التبيين لمعنى التكامل كما ينشده من ينشد الإسلام باعتباره دين الفطرة، نتصور الجسد البشرى: إن صحة ذلك الجسد فى تكامله ووحدته، فإذا انصرف عضو من الأعضاء عن ذلك الأصل السوى فلا تكون الصحة ولا يكون التكامل. العين لا ترى لنفسها.. واليد لا تعمل لحسابها. والقدم لا يسعى لغرض فى نفسه.. والفكر لا يعمل لمجرد الفكر.. والقلب لا يعمل لهواه..

ولكن.. يعمل الكل ـ إذا استقام الهدى ـ على إحياء سعى، وتدعيم سلوك، واستواء قصد، حول محور الواحد الأحد الذى ليس كمثله شيء.

ولا توجد الذات البشرية فى فراغ . . ولكنها توجد فى مجتمع من الخلق البشرى . . والخلق الحيوى . . والخلق المادى . . والأفلاك . وإن تكامل الذات البشرية بكل مقوماتها الداخلية مع الكون من حولها وتكامل هذا المجتمع مع الذات المتكاملة حول الذات الكبرى هو الهدف الذى تسعى إليه الفطرة السوية ، وهو هدف دين هذه الفطرة . . الإسلام .

فإذا تم الأمر ، أو قدر ما يتم هذا التكامل ، توهب الذات البشرية رؤية القيم القدسية . . وثمرته عشق السماء .

ورؤية الكون مكان العماء . . وينشأ من ذلك ـ فى الفن ـ البناء .

ورؤية البصيرة مكان البصر . . فلا يتوقف النظر عند المظهر بل يتعداه إلى الجوهر .

ورؤية الهداية مكان الغواية والهدى . . فلا يستسلم للخيال الضليل بل ينطلق إلى ذلك الظل الذى لا ظل إلا ظل رؤية اللامحدود أينما توجه البصر .

وهذا العشق تفيض بالتعبير عنه منجزات الفن الإسلامى ، دقت أو جلّت .

ومن وراء ذلك كله رؤية ذلك الأكبر الذى ليس كمثله شىء . فلا نجد فى هذا الفن تمجيدا . . أى تمجيد لمخلوق . . أى مخلوق ، أيا كان ذلك المخلوق . اللهم إلا الخالق الذى يعجز عنه الإدراك ، والذى يسعى الفن وسع قدرته إلى الهداية له .

من هذا يتضح أن الأمر . . على سلاسة قصده ـ صعب وعسير لولا أن الله يهدى من يشاء إليه ، وهو لذلك قد أعد له التاريخ العدة عندما تنقل بالبشرية فى مراتب التكامل والوحدة عبر العصور البدائية والعصور الحضارية ، وكان ذلك أمرا غير اعتباطى ، بل كان تمهيدا لذلك التحقيق العسير .

وماتزال النفس البشرية ومجتمعاتها تمر من البدائية إلى الحضارة ومن الذاتية والعصبية إلى العالمية والكونية والموضوعية ، أو هكذا نأمل أن يتيسر لها هذا المرور العسير .

وأظن أنه من المناسب أن نركز على نقطتين هامتين من النقاط التى سبق أن أشرنا إليها هما :

البناء واللامحدودية .

لأهميتهما لمفهوم جوهر الإسلام أساسا . . والفن الإسلامى بالتبعية ، ولنبدأ بالبناء :

إن البناء لا يعنى العمارة فحسب . ولكن البناء له معنى أشمل : فالإناء بناء . . والنسيج بناء . .

والإنسان بناء كما سبق أن ذكرنا عندما تتكامل وتتوحد وتترابط وتتآزر أجزاؤه حول المحور الواحد .

والعمل الفنى صورة للنفس العاملة لهذا الفن .

ومن هنا اتسمت منجزات الفن الإسلامى بروح البناء : ذلك الاتساق الداخلى الذى يعمر قطعة الزجاج أو الخزف التى تبدو وكأنها فى ذاتها قطعة من خلق الله . . أو تعبير عن مكنون ذلك الخلق من حيث الناحية الرياضية العددية والتماسك الذى يجعل من كيانها كلا متعضونا واحدا .

وهذا الأمر لا يقتصر فى الفن الإسلامى على ناحية دون ناحية بل هو يتخلل دقائق كل المنجزات : فعندما يرتفع البناء المكون من اللبنات تتماسك وتعلو وتشتد تآزرا ورفعة ، وهذا ذاته نراه فى الإناء المعدنى ، كما نراه فى قطعة الحلى ، كما نراه فى وشى النسيج ، ونراه فى أسطر الكتابة وفى جزئيات الحروف :

إن باب الصرح العظيم وغلاف الكتاب المنمنم ليعكس بعضهما البعض ، ويعكس كل منهما ذلك الإدراك للكون تتجمع فيه الأشتات وتأتلف فيه المتناقضات ويكون وحدة متكاملة منسجمة هى من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

إن العمل الفنى الواحد ـ المنجز الإسلامى ـ مهما كان ذلك المنجز ـ ليحاول أن يعكس ذلك الإدراك ويعبر عنه ، لا عن الطريق المباشر ولكن عن طريق الرمز البليغ .

والجزء يبدو فى ذاته متكاملا ، ثم لا يلبث أن يبدو متكاملا مع الجزء الذى يليه ، ولا يلبث أن يتكامل مع الجيران ، من أعلى ومن أسفل ومن يمين ومن شمال . . الكل يتماسك بروح البناء . .

روح الإسلام . . المسلم للمسلم كالبنيان .

والكون كله شجرة واحدة أصلها واحد تتآزر أشتاتها وتتجمع أجزاؤها بفعل ذلك الروح الواحد السارى فى كل الأجزاء .

تتنوع الأشكال إلى غير حد، ولكنها تتحد في ذلك البناء من جهة، وفي دعامة الوشائج التي تربطها مع الكل المحيط.

هذا كله يتم في بهجة ونضرة.. أو في مهابة وخشوع.

لهذا لاينأى الفن الإسلامى عن الطبيعة والمرئى، ولكنه يؤكد أواصر الثقة والألفة مع جوهر المرئى وروح الطبيعة الأساسى: السقف المرفوع.. والبساط الممدود بناء..

تلك الصفوف من العمد أو الدعائم أو العقود، كلها يشد بعضها البعض وتتآزر.. بناء..

تلك الأضرحة المستقرة على الأرض بعديد تفاصيلها التى تتماسك كلها فى وحدة واحدة، بناء، مثلها، فى ذلك مثل الإناء لا يكسبه الوشى المنمنم على سطحه مجرد زخرف للعين، ولكنه تأكيد وتفسير لمعنى ذلك الشكل الثلاثى الأبعاد وما يحفل به من تعبير عن قلب مؤمن متطلع إلى السماء.

وإذا كانت المئذنة أو القبة أوبعض منجزات هذا الفن أحيانا تبدو شبيهة، أو قريبة الشبه، بمرئى معروف فى الطبيعة من عالم الزهر أو الشجر، أو أيا كان الخلق، فإن ذلك ليس إلا أمرا فى ذاته عرضى ولكن الأمر الأساسى هو أن:

التوحد مع الطبيعة..

والتكامل القلبى..

ثم العمل من ذلك الأفق بمدد من الروح الأكبر..

هو الذى ينسج ذلك التعاطف والتجاوب الذين يصلان فى بعض الحالات إلى ما يشبه المطابقة.

لهذا نحن لا نشجع ذلك الاتجاه إلى الانشغال بالتفاصيل دون إدراك مكانها من الكل الذى يحتويها، لأن فى ذلك غفلة عن روح البناء الذى يمثل كنه العمل.. بل كنه الإسلام.

عن اللامحدودية:

وهذا الذى توفر على تحقيقه منجز ـ من أعمال الفن الإسلامى ـ من رمز يتجسد

فيه ذلك الذى أشرنا إليه بالبناء، والذى هو فى ذاته دلالة وشهادة على ذلك التناسق العجيب الذى يفيض ويشع بصفة قدسية هى صفة اللامحدودية . .

اللامحدودية من وراء المعقول . .

اللامحدودية من وراء الخيال . .

اللامحدودية من وراء الكل .

هذه السمة التى يشعها الكون عندما يتوجه إليه القلب الواعى والمتفانى متأملا إياها، يحققها الرائع من منجزات الفن الإسلامى، الذى هو فى الحقيقة أمل: أن يتحقق على مستوى صنع الإنسان، ذلك الوعى - قمة الوعى - بالوجود قمة الوجود.

ويلجأ الفن الإسلامى إلى تحقيق ذلك بعدد عجيب من الوسائل لا نظنها أتت عفوا، ولا نظنها أتت قصدا، ولكنها أتت طيعة، وعطية ولفحة من الأعماق:

كأن تلك الأعماق ذاتها هى التى يعمل بهديها كل هؤلاء الألوف من العاملين على هذه الرقعة الواسعة من أطراف الأرض، وعلى مدى ذلك الزمن من السنين . . قلب واحد . . وعمل واحد . . متعدد الأوجه . . متعدد السمات والشيات . ولكنه يأتلف - عندما ينجح - فى الإيحاء بتلك اللامحدودية القدسية ودون ذلك الهدف الأسمى لا يتحقق أمل الفن فى الإسلام .

إن الغاية والمراد - وهو القصد المطلوب - هو ذلك اللامحدود الذى لا ترتاح القلوب دون التنعم بحضرته والرى من منهله . ويعمل الفن على الوصل معه .

إن ذلك الوجد البشرى نحو ذلك الحضور القدسى لتتجاوب نداءاته من الأبنية وأسطح الأوانى وهندسة الصناديق ووشى النسيج .

كيف يتيسر عن طريق العمل البشرى تحقيق هذه النتيجة العجيبة ذلك هو سحر ذلك الفن الذى استغنى عن الكثير من وسائل التشكيل عندما تستهوى الصورة فنون التشكيل، فأغناه الله ذلك الغنى غير المحدود والذى يستمد قوة من ذلك التجرد الذى كان يبدو قصورا . . وما زال يبدو كذلك، للرؤية القابعة فى أسر المحدود: تلك الرؤية التى تجزئ وتجزئ حتى تجد ما تطمئن إليه قدرتها المحدودة، وتخشى لو أنها انفتحت على ذلك الأسلوب من الرؤية للكل التى يستوحيها ذلك الفن الإسلامى، حتى يعطى عطاءه ويؤتى ثماره للقلب المنشرح لذلك العطاء، والتواق إلى ذلك الجنى .

هذا ولابد من كلمة عن ظاهرة تستلفت النظر عندما تذكر فنون الشرق، سواء في ذلك كانت فنون الصين أو فنون الهند أو فنون الإسلام :

ذلك الصبر العجيب .

تشترك هذه الفنون الثلاثة في أحقيتها بهذه الصفة التي تبدو على السطح ظاهرة، ولكن أغوارها ما تزال خافية، ونود أن نتعرض لها في شقها الإسلامي .

يبدو الحرفي الإسلامي في عمله كراهب في صومعته، قد كرس نفسه كلية لعمله، ينشد خلاص نفسه من أسر ضيق ينشد الانطلاق إلى رحاب الحرية .

ولقد وجد الناس في هذا الحيز من الأرض أن الخلاص في الإخلاص . ولا يعني ذلك أنهم وجدوا خلاصهم في الاستماتة الآلية في العمل والعزوف عن غيره، اكتفاء بما يعطيه ذلك الانشغال الرتيب . . بل كان السبب الحقيقي ـ في إبان عظمة الثقافة الإسلامية ـ هو رؤية ذلك اللامحدود الذي أشرنا إليه : كيف تجلى في روائع ذلك الفن .

كانت تلك الرؤية، هي التي تجذب إليها العامل، فيعمل بكلياته منصرفا عن كل ما سوى ذلك العمل، متبتلا في ذلك المحراب محققا لما يتجلى عليه من فيوضات، فيبدو الأمر للرائي السطحي ـ الرائي من خارج التجربة ـ أن ذلك الإنسان قد أوتي من الصبر مالا قِبَلَ للإنسان العادي به، وهذا حقيقي ولكن الرؤية عجفاء، لأنها لا ترى من الأمَر إلا ظاهره، بينما لو أنها رأت حقيقته الكلية لتجلى لها الأمر في الصبر أنه انشغال عما تألفه العادة والحياة الرتيبة والقيم الأرخص بما هو أعلى وأسمى، من الصفات التي يجلوها عليه ذلك اللامحدود، الذي ليس كمثله شيء .

وهنا يكون العمل ذكرا، ولهذا الذكر رهائف من المعنى عديدة، لا تتاح بالذهن والقسر الفكري، ولكنها تتاح بالرفق العملي الذي يعرفه صاحب الصنعة ممارسة، ويعرفه العامة بالنقيض عندما يتحدثون عن الغشيم بمعنى الجاهل .

وربما كان هذا المفهوم للحرفة اليوم صعب المنال، لبعد الشقة بين الوجود المحدود والوجود اللامحدود : توقفت الرؤية . .

وأصبح المجهود العملي في الحرفة كدحا وعرقا وإجهادا . .

بينما كان الأمر - عند وضوح الرؤية - نوعا من البر، ونوعا من الإسعاد لصاحب الحرفة ولغيره من الناس. .

كان العمل خلوة مع ذلك اللامحدود. .

وكان العمل جلوة لتلك الفيوضات.

وعندما نقرأ فى الكتاب، الصبر والصلاة، ونتدبر أمر هذه النوعية من العمل الحرفى، ندرك كيف يقترن الصبر بالصلاة، الصبر يؤدى إلى الصلاة، والصلاة تدعم ذلك الصبر.

ويعبر الفن الإسلامى فى قمم أعماله فى المساجد عن الصبر والصلاة.

الصبر فى تلك الصروح القوية المستقرة المطمئنة على الأرض، ولكن تخالجها تلك الوجدانات الصاعدة إلى السماء، تتجلى مركزة ومكدسة وعارمة وعفية وقوية سامقة فى تلك المآذن. . تلك التعابير الفنية التشكيلية المعمارية عن معنى الصلاة: الصلة بين قلب الإنسان وقلب الوجود.

الفن إذن فى ضمير الإسلام هو العمل الذى تتحقق - أو يمكن أن تتحقق - فيه هذه الفيوضات على الكيان الكلى للعامل وتتجسد فى الشكل المنجز النهائى الذى يفيض بدوره على من يتلطفون فى تفهمه، ويحسنون عشرته، لا على سبيل السلبيات بل على سبيل المشاركة الوجدانية، والانتباهة الكريمة. كما يتنبه النبات إلى مصدر النور، ويسعى إليه بتنمية كيانه وتلبية خلاياه.

وبهذا تكون تلك المنجزات وكأنها شموس تنير المتوجهين إليها بتلك الرهائف الكثيرة من ذلك الذكر الحكيم التى وجدت سبيلها إلى منجزات الفنون الإسلامية بفضل ذلك الصبر، نتيجة تلك الرؤية.

وإننا لا نجانب الحقيقة عندما نقول إن الفنون الإسلامية هى تفسيرات وجدانية عملية عن ضمير الإسلام.

ابتعدت عن لغو الكلام، وعقم الجدل، وجفاف الفقر المعنوى وأترعت بسلام وطمأنينة - هما ثمرة الإسلام، دين الفطرة، دين التكامل والوحدة - حكمة قلب: تحقق عمليا بمعنى التوحيد. . سره

ومعانى التعاون والبناء . . طرقه

وعز الإحكام والإتقان . . مقامه

ونعيم البر الحرفى . . حاله

وحرية التجويد الخلاق . . تطبيقه

نهاية البساطة، ولا نهائية الثراء، فى صمت القلب الخاشع المستمع، وفيوض الروح، والعمل لوجه الله.

أحاديث ألقيت باللغة الدارجة ـ شرحا للفنون الإسلامية

أصالتها وأهميتها ـ فى لقاءات أصدقاء الفن والحياة الشهرية

ألقيت بالمتحف الإسلامى بالقاهرة فى عام ١٩٨٢م

أعادت صياغتها وأعدتها للنشر إحسان خليل

١ـ عوائق الرؤية ومشجعاتها

اخترنا لأحاديث عام ١٩٨٢م «الفنون الإسلامية: أصالتها وأهميتها» وذلك بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى من جهة، ولأهمية الموضوع، بصرف النظر عن أى مناسبة عابرة، من جهة أخرى، وسيكون لقاؤنا هنا فى المتحف الإسلامى.

وتأتى أهمية الموضوع بمناسبة وضعنا الثقافى حاليا، وضع التبعية للحضارة الغربية المعاصرة، بينما حضارتنا الأصلية التى كنا نصنعها وثقافتنا الأساسية الأصيلة هى الثقافة الإسلامية. إننا وباقى الدول غير العربية ندين ـ حاليا ـ بالتبعية للحضارة الأوروبية بطرق الأسر لا الانفتاح. نحن ضد أى انغلاق، ولكن هناك فرقا بين أن أطلع على الحضارة الغربية وأسهم فيها وتصبح لى قولة؛ أخذ وعطاء.. وبين أن أكون مجرد تابع، لا أعرف كيف أعطى ولا كيف آخذ.. ثم إنه من صالح العالم ككل أن تكون له ذات وخلاقية. وأن تكون هذه الخلاقية متمركزة فى هذه الذات التى لها كيانها المتفرد الخاص، وعلى بينة من انشراح القلب للأخذ، والاقتدار على العطاء، وبذلك لا يصبح نسيج الحضارة المعاصرة قاصرا على مجموعة معينة من الأمم، والباقى أمم تابعة وخلاقيتها معطلة.. بل تصبح الحضارة المعاصرة ـ والريادة فيها إلى الآن فى أيدى العالم الغربى ـ مجالا لأن تسهم فى التفاعل معها أمم أخرى لم تتنازل عن حقها فى الحياة وحقها فى الأخذ وحقها فى العطاء.

إن قراءتنا لتاريخنا المحلى والعالمى تتطلب كلمتين:

إننا نعتبر أن مصر مرت فى مرحلتين كبيرتين.. بموجتين حضاريتين كبيرتين: الموجة الأولى بدأت بالفراعنة واستمرت من بداية الأسرات حتى دخلت تحت السيطرة الغربية فى صورة غزو الإسكندر.

والموجة الثانية بدأت بدخول المسيحية فالإسلام ـ وأنا أعتبر المسيحية والإسلام اتجاها واحدا ـ وانتهت بدخول نابليون.

ونحن على مشارف مرحلة ثالثة بدأت من مقاومة نابليون، ثم مقاومة الإنجليز، ومستمرة تحت شعار الإسلام وتحرير الذات المصرية، وخلف الموجة الجديدة الثالثة.

الموجة الأولى كان طابعها الأساسى . . عطاؤها الأساسى هو الحضارة. أى أن مصر كانت بلدا رائدا فى الحضارة . . كانت من السابقين إلى الحضارة . . كانت من السابقين إلى خروج الإنسانية الأول من الظلمات إلى النور . . من الهمجية إلى الحضارة. وكان لها عطاء تعلمت منه شعوب الأرض، ومازالت تتعلم إلى اليوم.

وكان من أوائل من تعلموا من مصر، اليونانيون الذين يعتبرون رواد الحضارة الغربية، ثم استقلوا بشخصيتهم وأصبح لهم عطاؤهم.

لكن العطاء المصرى فى مرحلته الأولى - الذى يتمثل فى الحضارة - كان عطاء مصريا صميما وأصيلا ومازلنا حتى اليوم نفخر به ونداوم على ترديد أن مصر رائدة الحضارة منذ آلاف السنين.

والموجة الثانية كان طابعها عطاء الديانات السماوية . . قيم الديانات السماوية. ورأى أصدقاء الفن والحياة أن المرحلة الثانية، أو الموجة الثانية، كانت تحقيقا لإيجابيات المرحلة الأولى . . لم تكن مبتورة عنها . . لم تكن شيئا مختلفا تماما عنها، إنما هى نمو وتكامل وتفوق على إيجابيات المرحلة الأولى . . كما فى مراحل نمو الإنسان من الطفولة إلى الرجولة . . ففى كل مرحلة فى ذاتها جمال وقيمة ولكن إذا صحت الحياة تؤدى كل مرحلة بعد تمام نضجها للمرحلة التى تليها وهكذا، بحيث كلما كبر الإنسان كبر أيضا فى إدراك القيم، وأصبح عنده قدرة أكبر على مزيد من العطاء.

ولأن هذا الرأى - رأى أصدقاء الفن والحياة الخاص - غير موجود فى مراجع نقول:

إن للحضارة خمسة محاور:

المحور الأول : علاقة الإنسان بالإنسان ابتداء من صلح الإنسان مع نفسه إلى صلحه ووده مع الآخرين.

المحور الثانى : علاقة الإنسان بالكون من حوله . . أى أن تتسم علاقته بالجماد والنبات والحيوان بالموضوعية، التى تظهر فى نضجها فى الموقف العلمى أو النظرة العلمية مع الحب والتقدير والتواصل مع الكون ومافيه. فالإنسان المتحضر يشعر بالتزام حضارى

يشعره أن هذا الكون هو بيته فلا يلقى بقاذورات فى الصحراء ولا يغتال الأشجار ولا يصطاد الحيوانات إلا فى حدود الضرورة والحاجة. بذلك يصبح هناك جزء وجدانى وجزء ذهنى فى علاقة الإنسان بالكون ويشعر الإنسان أنه مسئول . . مكلف . . عليه أن يرعى الحيوان الضعيف، ويحافظ على البيئة ليس فقط فى حدود ملكيته الخاصة ولكن فى كل البيئة، ما قرب وما بعد . . حتى المناطق الجوية البعيدة ـ لو أن عنده وعيا لما لوثها وخرب فيها وأضر بالأجيال القادمة .

المحور الثالث : أن هناك قانونا أخلاقيا . . هناك سمت صحيح وآخر خطأ . . وأن هذا مكتوب فى فطرتنا، وإن كان العلم لم يصل بعد إلى تحقيق هذا . إلا أنه سيصل حين يهتدى إلى الطريق . . ولكن الأنبياء والحكماء والشعراء والبشرية الواعية فى العصور القديمة فى قممها تدرك أن هناك سمتا إذا انحرف عنه الإنسان انحرف عن فطرته السوية .

المحور الرابع : المبدأ الروحى : إن هذا الكون فى الآفاق وفى أنفسنا . . فى الماضى والحاضر والمستقبل خلفه محور غير مرئى ولكنه أساسى، بل هو الحقيقة الأساسية لهذا الوجود كله، نسميه المبدأ الروحى . ونتعرف عليه برؤية بصيرية، أى أن يدرك الإنسان قلبيا أن هناك هيمنة مسيطرة على الكون، ما دق فيه وما جل، وأننا كبشر نكرم بأن نعطى شيئا من هذه القدرة . . القدرة على التفكير . . القدرة على الخلق . . شىء من هذه الصفات العظيمة التى يحن ويتشوق ويتوقف ويجاهد فى سبيلها القلب البشرى . فإذا كان فى ضميرنا ما يتجاوب مع هذا فهو من أمر المبدأ الروحى .

المحور الخامس: ليس الموت نهاية النهايات بل هو نهاية مرحلة . . والنفوس ستعود إلى الأصل والمنبع . . وهو ما نسميه المعاد . فالموت بداية النهاية .

فإذا تحرك وجدان إنسان على هذه المحاور الخمسة بحرية ويتكامل فهو متحضر .

وقد كان المصريون القدماء الذين لنا شرف الانتساب لهم هم الذين حققوا هذه النوعية للوجود فى بداية التاريخ . . فى فجر التاريخ . وهنا نذكر كتابا جميلا لعالم أمريكى جليل هو «برستد» هو كتاب «انتصار الحضارة» وقد ترجم الدكتور «أحمد فخرى» الجزء الخاص بالشرق القديم منه . . وهو يقصد انتصار الحضارة على الهمجية الذى تحقق هنا فى مصر لأول مرة فى التاريخ . وإنى أزكى هذا الكتاب وأتمنى لو أن التليفزيون اتخذه سيناريو على حلقات ليتعلم منه الناس ماذا نعنى بأن مصر أم الحضارة .

لكن لا تظنوا أن مصر كانت وحدها . بل هى وأقرباؤها من العالم القديم ، ما بين النهرين مثلا . إلا أن مصر كان لها امتياز وفردانية ولها شخصيتها ، وكذلك البلاد الأخرى من العالم القديم ، وكنا معهم نكوّن نضج شخصية إنسان العالم القديم . و«لبرستد» كتاب آخر جميل هو «فجر الضمير» .

إنى أزكى بعض الكتب التى تصل بالإنسان المصرى إلى أن يعرف مسئولياته ولا يفتخر فقط بمصريته بل يعرف التزاماته ويحترم مسئولية كونه مصريا ويحقق حقوق المصرية عليه .

يقول «برستد» فى فجر الضمير إنه لأول مرة فى تاريخ البشرية يكتشف شعب من الشعوب القانون الأخلاقى ، والعدالة الاجتماعية ، والحق والخير . . وأن ما جاءت به المسيحية والإسلام فى عملية الميزان سبق إليه المصريون حيث كان يوزن قلب الإنسان فى كفة والحق الذى كان يسمى «الماعت» فى الكفة الثانية . . وكان هذا فى المحكمة الأخيرة بعد الموت .

حين نفهم هذه الموجة الحضارية المصرية الأولى بهذا المعنى ندرك كيف أن الديانتين السماويتين ، المسيحية والإسلام كانتا تحقيقا لإيجابيات تلك المرحلة الأولى : الحضارة ، كان هناك معاد . . وميزان . . ومبدأ روحى . . وكان الإنسان يعامل الإنسان بالود والحب ، ويحترم الكون الذى يعيش فيه ويعرف أن الله لم يخلق كل هذا عبثا ، فيحترم إرادة الله فى خلقه . . كل هذا لا يشذ عن المسيحية والإسلام إلا أن بدايته كانت فى العصور الفرعونية القديمة ، وبهذا المعنى نقول إن المرحلة الثانية كانت تحقيقا لإيجابيات المرحلة الأولى . . وإن التاريخ لم ينقسم قسمين كما يدعون .

والمفروض أن تحقق المرحلة الثالثة المرحلتين السابقتين ونحن كأصدقاء فن وحياة نعمل على إعادة بناء الشخصية المصرية لتحقق **المرحلة الثالثة**. وهدفها لدينا هو الحرية. . الحرية أمل الإنسانية.

ولما كانت مصر من رواد الحضارة فى المرحلة الأولى. .

ومن رواد المسيحية والإسلام فى المرحلة الثانية. .

فالأمل أن تكون من رواد الحرية فى المرحلة الثالثة.

والحرية كما قلنا هى خلاقية متمركزة فى ذات.

ونريد تحقيق الذات المصرية لتمارس خلاقيتها.

وأن تكون هذه الذات متحققة فيها البشرية بمميزاتها: ليست المميزات الجسمية لأن الجسم جزء. . ولا الغرائز لأنها جزء أيضا، فالحيوان له غرائز وجسم. . حتى ولا العقل، فللحيوان عقل وإن كان صغيرا. . إنما ما يميز الإنسان هو الحياة الروحية. فإذا تكامل الجسم مع الغريزة مع العقل مع الروح أصبح الإنسان ذاتا. وإذا مارس الخلاقية ـ التى تعتبر من صميم هذه الذات ـ أصبح حرا.

فكيف تصبح مصر حرة؟ إن كلا منا خلية من خلايا جسم البلد. فلابد أن يمارس كل منا خلاقيته بعد أن يصبح ذاتا. . وأن نعمل جميعا بتوافق. . يوجد الحوار والنقاش والاختلاف، ولكن لايعطل الحركة ولا السعى الأمامى للبلد، إنما يخدم هذا السعى.

فهل يبيّن هذا الشرح أهمية موضوعنا؟ وقدكانت الثقافة الإسلامية هى ثقافتنا قبل أن نقع تحت أسر الحضارة الغربية.

وسيبين شىء آخر حين نشرح الجزء الثانى من فكرنا كأصدقاء فن وحياة فيما يختص بالتاريخ وهو تاريخ البشرية:

نقول:

حين نستعرض تاريخ البشرية كله نجد أنه أثمر وأنضج أربع شخصيات:

شخصية إنسان العالم القديم ونحن فى القلب منها. .

وشخصية العالم الغربى الذى بدأ باليونان ويمتد اليوم إلى أوروبا وأمريكا وروسيا. .

وشخصية العالم الهندى .

وشخصية العالم الصينى .

هذه الشخصيات الأربع لو أن كلا منها استعادت كيانها مرة ثانية وحررت نفسها ومارست خلاقيتها وفعاليتها لأصبح العالم أغنى بكثير، خاصة إذا لم تقهر كل شخصية من هذه الشخصيات الأفراد فيها، بل سمحت لهم بالنمو واعتبرتهم رأسمالها واعتبرت أن المفروض أن يكون كل فرد ذاتا متكاملة لها خلاقية تمارسها .

ولكى يتم هذا يحتاج الأمر لوعى كبير بتاريخ البشرية بعامة وتاريخ الشرق القديم بخاصة وتاريخ مصر على وجه أخص . . ثم بجيلنا اليوم وآماله وآلامه، وما هى القضية الأساسية؟وما الواجب؟ وكيف نعد كل فرد ليقوم بواجبه؟

وهو ما نحاول أن نسهم فيه .

لابد أن نعود إلى المسيحية والإسلام لا على أساس الجمود بل على أساس الفقه العميق للعطاء الأساسى لتلك المرحلة العظيمة من تاريخ البشرية . .

ونعرف أن ما قبلها كان يحضر لها على النهج الذى شرحته . .

وأن الاثنين يحضران لمرحلة فى نمو البشرية هى الحرية التى يُحترم فيها كيان الإنسان، ويصبح فعلا لوجوده معنى على هذه الأرض .

يتضح مما قلته أن الفنون الإسلامية كانت ثمرة فنون العالم القديم .

ونحن نعتبر أن الفن الأساسى الأكبر هو فن الحياة .

وكل علم وكل نشاط بشرى عبارة عن رافد من روافده فى الحياة .

والفنون ليست هى التصوير والنحت والفنون التشكيلية والموسيقى والرقص . . فحسب، إنما الفنون هى كل نشاط إذا تم بحيوية وبإنسانية سوية يتحول إلى عمل فنى .

لأن العمل الفنى عبارة عن مجموعة أجزاء تتكامل فى وحدة . . وتشع قيمة .

فإذا كان البحث العلمى فيه وحدة ويشع قيمة فهو عمل فنى . .

وإذا كانت العملية الجراحية أو العملية المعمارية فيها وحدة وتشع قيمة فهى عمل فنى . .

وإذا كانت شخصيتك بكل أجزائها من جسم وغريزة وفكر وروح تعمل وحدة وتشع قيمة فأنت نفسك تحولت إلى عمل فنى.

فالنقطة الأولى: فى الفنون الإسلامية هى أنها تجسد فيها أمام أعيننا جزء هام جدا من حصيلة وثمرة العصور القديمة، ليس الحضارة المصرية فقط بل وما بين النهرين والفرس وحتى العصور الهيلينسية.. وما قبل المصريين وما قبل الآشوريين والسومريين وما قبل التاريخ.. خلاصة كل هذه الحضارات تجمعت وتكاملت وتوحدت وأشعت مجموعة قيم فى الفنون الإسلامية.

نريد أن نفهم أكثر أهمية الفنون الإسلامية.. وأصالتها.

كنت أتناقش مع زميل من سوريا - فى أثناء انعقاد لجنة دائرة معارف للفنون الإسلامية تابعة لجامعة الدول العربية - وقد اعترض على استعمالى كلمة «أصالة» للفنون الإسلامية. وتساءل هل الفنون الإسلامية أصيلة، وهى تأخذ من هنا ومن هناك!! وتوسعت المناقشة، فطلب منى أن أكتب عجالة فى هذا الموضوع «أصالة الفنون الإسلامية» وقد أضفت للموضوع وأهمية الفنون الإسلامية أيضا.

الفكرة أنه لدينا هنا فى القاهرة - وليس فقط فى المتحف الإسلامى - من الآثار الإسلامية من بقايا العصور أكثر مما هو متوافر فى أى عاصمة إسلامية. ونحن أصحاب باع وتاريخ فى الإسلام وفى المسيحية وفى الحضارة. ولابد أن نستوعب هذا التاريخ وتلك الآثار ولا نفرح لمجرد وجودها فى المتاحف أو فى الكتب، بل لابد أن تكون خلاصة هذا كله فى صدورنا. فى قلوبنا.. فى عقولنا وفى كياننا وشخصيتنا وأن يبين فى أعمالنا.

فالفكرة الأولى أن الفنون الإسلامية هى ثمرة العصور القديمة وكان لها الريادة فى العصور الوسيطة. المسلمون قلبا وحقيقة لأن الرؤية الإسلامية للوجود هى جزء من الرؤية الدينية للوجود.

ولكن معنى وجودى ووجود العالم اليوم مظلوم فى العالم المعاصر.

أنا لا أتكلم عنا فقط، بل عن العالم المتقدم المعاصر الذى أصبحت الرؤية الدينية بالنسبة له خارج بؤرة الاهتمام، وإن وجد فيه نوع من التنبيه لضرورة الرؤية الدينية للبشرية. أى أنها ضرورة للصحة النفسية للإنسان، لأن الرؤية الدينية هى التى

يتضح بها معنى الوجود. . وهى، أى الرؤية الدينية، عبارة عن رؤية الإنسان المتكامل، للكل المتكامل حواليه. وهو يدرك شيئين فى رؤيته هذه:

أولا : معنى الوجود كما قلنا. .

وثانيا: فيض عارم من القدسية؛ أى أنه يشعر أن الكون مشبع بالقدسية والمعنى.

ولكن أعرّف الشعور بالقدسية لا أعرّفه بالكلام، إنما أذكّر بالأماكن التى زرناها سويا كضريح قلاوون مثلا، أو جامع السلطان حسن، أو الهرم، أو فى الآثار المصرية العظيمة والمسيحية العظيمة والإسلامية العظيمة، حيث يشعر الإنسان بحضور قيمة تختلف عن الحياة العادية فى الشوارع. وإن كنا نشعر ذات الشعور فى الشوارع الإسلامية الكبيرة كشارع المعز لدين الله مثلا، الذى يختلف كلية عن شارع مثل شارع سليمان باشا من حيث قيم القداسة التى تعمره. . شىء من السمو. . شىء من الجمال والجلال. وشىء من الكمال يتجلى فى المآذن العظيمة. . فى الصحون والإيوانات والأضرحة وفى شتى الأعمال العظيمة الملىء بها هذا المتحف المفتوح فى ذلك الشارع الإسلامى.

ولابد أن يكتب التاريخ بهذا الشكل. وأن يكشف أن العالم الأوروبى حين احتك بنا أخذ من هذا الدرس وبدأ سعيه هو حتى أصبحت له الريادة. . فى حين تراخينا وهبطنا.

ولكن، ونحن على أهبة قومة جديدة وبناء حضارة جديدة تكمل المرحلتين السابقتين دون أن تجبهما، علينا أن نحمل الرسالة خطوة أبعد مما تم من قبل.

والنقطة الثانية: هى أن من كتب عن الفنون الإسلامية حقيقة وبكمية كبيرة ليسوا هم المسلمين أصحاب هذه الفنون، بل إنه العالم الغربى، لأننا نائمون وهو يقظ: هو الذى يجمع ويدرس ويكتب لنا تاريخنا.

ونحن نشكره -بلا شك- ونقدره، ولكن نحن نقول إن رؤية فن كبير كالفن الإسلامى عاش أكثر من ألف عام يعطى العالم كله. . والشعوب التى اشتركت فيه من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى.

ومن الصين للأندلس. . ومن تركيا للسودان، وأعماق القارة الإفريقية ملايين البشر لأكثر من ألف عام. . عمل كبير. . نقول إن رؤية مثل هذا العمل الكبير ليس

عملية سهلة. ورغم أن الكتابات الأوروبية، والتاريخ الأوروبى، والمؤلفات الأوروبية، والمتاحف الأوروبية كلها ديون علينا، إلا أن هناك جزءا مهما لن يقوم به إلا نحن. كيف نفهم هذه الفنون؟ وفهمها لابد أن يبدأ من الداخل؛ أى من داخل الوجدان الإسلامى يُفهم الفن الإسلامى مهما كان الكاتب الغربى حسن النية، فالإسلام غريب عنه.. هو لم يعشه.. لم يمارسه. لقد فهمه من الخارج وقد يكون قد فهمه على أنه مجموعة قوانين وشعائر.

إنه لم يدخل الوجدان الإسلامى.

لهذا لن يشرح الوجدان الإسلامى إلا المسلمون. شعور بالقداسة؛ أى شعور بأن الله موجود فى كل الوجود. ومع هذا الإحساس يشعر الإنسان بالمعنى. إنه ليس عبثا كل هذا.. بل كلها عُملت لحكمة.. وحين أشعر بهذا فأنا أتواصل مع هذه الحكمة قدر استطاعتى..

هذا هو الوعى الدينى..

وهو نادر فى عالم اليوم.

وتذكرون منذ سنوات أننا ألقينا أربعة أحاديث عن الخبرة الدينية. وتذكرون أننا اخترنا عن المسلمين شخصية ممتازة هى «محمد إقبال» الشاعر، وشرحنا رأيه فى التجربة الدينية؛ فالديانة لكى تصح لابد أن تبنى على تجربة، على خبرة، كالعلم؛ فالإنسان ينشأ فى ديانة معينة بالسمع والاتباع ولكنه حين يبلغ الرشد لابد أن يبحث بنفسه ليؤصل رؤيته الدينية ويجدد إسلامه أو مسيحيته؛ أى يجدد فهمه لدينه إذا لم يرد له أن يكون مجرد شيء لُقنه منذ الصغر ونشأ عليه وانتهى الأمر. وهذا يتم عن طريق التجربة الدينية التى يتأمل فيها الإنسان هذا الكون بمجموع كيانه، فيتولد فى قلبه الشعور بالقدسية، الذى يُشعر الإنسان بأن الله موجود فى كل الوجود.. وأن الكون مفعم بالمعنى.. وحياته نفسها لها معنى من انتسابه لهذا المبدأ الروحى والتزامه بأوامره ونواهيه واتباعه السمت الذى يرسمه القانون الأخلاقى الموصل له.

وتذكرون فى أثناء إحدى زياراتنا لمنطقة سقارة.. فى مقبرة ملحق بها مصطبة - أى بيت للروح - لوزير من الأسرة الخامسة فى مصر القديمة هو «مبراروكا»، أننا لاحظنا أن كل الصورة الموجودة على الجدران المنحوتة فى الحجر، هى للحياة

العادية حيث تزور الروح المكان، لتتواصل وتستمتع بالحياة، لأن التواصل مع الحياة ديدنهم فى الحياة القائمة وأملهم فى الحياة الثانية.

وتذكرون أنى أشرت إلى أنه لا يوجد أى رسم يدل على أى رمز دينى.. ومع ذلك فمن خلال كل الرسوم.. وكل الخيالات.. وكل الأعمال هناك يوجد شفيف من الرؤية الدينية.

لأن الإنسان حينما تحدث له الرؤية الدينية الحقيقية يتغير.. يتحول.. يستنير: كما لو كان هناك مكان مظلم وأضأت النور؛ المكان هو المكان ولكن شتان بينه وهو مظلم وبينه وقد شعت الأنوار فى جنباته.

والنور هو نور المعرفة.. ﴿والله نور السموات والأرض﴾.. وحين ترى بنور الله فأنت تتغير كلك..

ولكى نفهم الفنون الإسلامية لابد أن نفهم هذه النقطة الأساسية:

إن الفنون الإسلامية منبثقة من الرؤية الإسلامية.

وإنى أطالب معاهد الآثار، وكل من يدرس الفنون الإسلامية أن يعى هذه النقطة.

إن الرؤى الدينية كلها تأتلف مع بعضها البعض وتختلف فى الوقت نفسه، هى تأتلف فى الصميم وتختلف فى بعض الخصوصيات.

وسأشرح خصوصيات الرؤية الدينية الإسلامية، لأنها هى التى حققت الفن الإسلامى.. وهى خصوصيات كثيرة ولكنى سأتعرض لعشر منها فقط، وكل نقطة منها لها أثر فى شخصية الفن الإسلامى كما تحقق:

١ - إن حقيقة الحقائق هو الله.

٢ - إن الحياة الحقة هى إسلام الوجه لله كلية وفى كل شىء.

٣ - إنه واحد أحد.

٤ - التنزيه: أى أنه ليس كمثله شىء وكل ما يمكن تخيله هو بخلافه.

٥ - الشمولية: لا توجد صغيرة ولا كبيرة فى حياة الإنسان إلا وللرؤية الدينية الإسلامية توجيه فيها من البداية إلى النهاية، وقد كان لهذا تأثير أساسى فى تشخيص الفنون الإسلامية.

٦ ـ رؤية حسابية للكون: حسابية هندسية رياضية. . وقد خلق الله كل شيء بقدر، فالرؤية الدينية الإسلامية مشبعة بالحساب والهندسة والرياضة؛ والتماثل الهندسي مثل جنة ونار. . ثواب وعقاب. . ملائكة وشياطين. وكل شيء بمقدار.

٧ ـ الطبيعة صنع الله الذي أتقن كل شيء، سواء في ذلك جناح البعوضة أو جناح النسر، أو الكون كله. الكل بنفس الدرجة من الإتقان.

٨ ـ لاشيء في الكون لا في السماء ولا في الأرض إلا يُسبح لله.

٩ ـ التعلق بالسماء مع عشق الحياة على الأرض كما في قول الغزالي: «يسيرون على الأرض وقلوبهم معلقة بالمحل الأعلى».

١٠ ـ العالمية: أي للناس كافة بلا عصبية قبلية أو جنسية أو إقليمية.

* * *

كان هذا فيما يختص بالرؤية الإسلامية وخصوصياتها أما ما يمنع الناس من إدراك أصالة الفنون الإسلامية فبعض سلبيات نوجزها فيما يأتي:

١ ـ **السلبية الأولى**: أن تكون فكرة الإنسان عن الفن فكرة هزيلة.

فإن الفن كما هو ممارس اليوم فعلا يسمح للناس بعامة، ولمن هم في السلطة بمن فيهم الفنانون، بأن يستهينوا به، لأنه يبدو أنه شيء على هامش الحياة. . مجرد أمر معترض. . لا قيمة له. وإن وجدت قيمة فضئيلة غير كافية للإقناع بالفن. وتكون النتيجة أن يفقد الناس حاسة إدراك الفن وأهميته.

٢ ـ **السلبية الثانية**: أن تكون رؤية الحياة نفسها ومعناها سقيمتان أيضا. وهما سلبيتان تمنعان من إدراك قيمة الفن الإسلامية، الذي قلنا عنه إن فيه تجسيدا للقيم العظيمة، التي هي ثمرة الحضارات القديمة، و الديانات السماوية، ومن صنع ملايين الناس لأكثر من ألف سنة.

٣ ـ **والثالثة**: هي السطحية التي تجني على كل الفنون العميقة وليس فقط على الفنون الإسلامية. . فكثيرون يعتبرون أن كل الفنون التي تمت قبل عصرنا هذا فنون غير ذات موضوع. . ولكنهم بعد أن أدركوا سخف هذا القول امتنعوا عن التصريح به.

ولإدراك أهمية الفن أشرح الطريق الذي اقتنعت به:

عليك أن تصاحب نشأة الفن من البداية . . كيف بدأ مع الإنسان فى العصور الحجرية القديمة، حين كان الإنسان صائدا، وكان يرسم على جدران الكهوف رسما عظيما جدا. ويقول العلماء الذين يدرسون تلك العصور، إنه لابد وأنه كان هناك ما يعادل أكاديميات الفنون حاليا لتعلم الناس، لأن هذا العمل لا يمكن أن يتم بأن يحاول أى إنسان أن يرسم حيوانا وانتهى الأمر، كلا إن اليد التى خطت. . والخطوط نفسها، تظهر مدى ما فيها من خبرة وتدريب ومهارة وقدرة واقتدار على التعبير بالنسبة لهؤلاء الناس، فى تلك العصور السحيقة. لم يكن الفن لديهم على هامش الحياة. . بل كان حياتهم؛ كان الصائد يرسم الحيوان وفى قلبه الحربة مثلا، ولديه الاعتقاد أنه حين يخرج للصيد سيصيب الحيوان نفسه بحربته فى قلبه، كما رسمه تماما. لذلك نجد واقعية رسوم الحيوان فى رسوم الكهوف فى العصور السابقة للتاريخ عجيبة جدا، ويندر أن تقارنها بأى فن آخر ـ مهما كان سواء مصرى أو صينى من الفنون التى احتفلت بالحيوان. لماذا؟ لأن لها خصوصية مختلفة:

فالحيوان فى الفن المصرى القديم يمكنك أن تحدده بكل جزء فيه: هذا قرن وهذه عيون وتلك أنف ورجل. . فإذا كان الجزار يقطع الثور مثلا، فيمكنك تحديد ما يقطعه الجزار بالضبط.

أما فى رسوم الكهوف فالأمر غير ذلك؛ هو ينظر للبايسون ـ وهو نظير الثور فى أيامنا ـ ويراه رؤية ديناميكية، تمتزج فيها كل أجزائه بحيوية، لأن حياته كانت مرتبطة بهذا الحيوان. فهو الثروة التى سيعيش بها. لذلك هو يتنبه له تنبها بكل كيانه وبكل أعصابه، وحين يخرج لصيده، يكاد أن يكون إيقاع حركته وإيقاع حركة الحيوان إيقاعا واحدا بحيث يمكن أن يملكه.

هنا الفن ليس هواية فقط، أما كونه بهذا الإبداع فلأن العمل البشرى السوى يخرج هذا الجمال وهذا الإبداع.

وحين يصنع السكين الظران ـ وسنرجع كثيرا لهذه السكين من الظران أو البلطة الظرانية ـ فهو يصنع أداة. . آلة. . وسيلة تمكنه من فاعلية العمل، يمكنه أن يقبض عليها جيدا، ولها سن حاد يمكنه أن يقطع بها بسهولة ويحقق بها أغراضه. .

هنا العمل الفنى ملتحم بحياة الناس تلاحما لا انفصام فيه.

وحين انتقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة فى العصور الحجرية الحديثة فإنك

تبحث عن رسوم الحيوان على جدران الكهوف فلا تجدها . . هناك حيوانات نعم ولكن أين ذهبت الواقعية العجيبة لرسوم الكهوف . . تجد بدلا عنها بعض الحيوانات المرسومة على الأوانى بشكل هندسى . . رمزية هندسية صرف . . أين الفن؟

كان يسكن الكهوف ويصطاد لذلك كان يرسم الحيوان على جدران الكهوف . ثم أصبح يحتاج الأوانى والمبانى والكساء ، فأصبحت أوانيه من أجمل الأوانى الموجودة . . أوان فى غاية الروعة . وانتقلت حيوية الحيوان إلى حيوية الإناء .

الفن ليس مرتبطا بما يسمى تصويرا واقعيا أو غير واقعى إنما هو مرتبط بحياة الناس ووجدانهم واهتماماتهم .

فنحن اليوم مثلا نعطى اهتماما كبيرا فى الناحية الفنية لفن الإعلان فهو الذى يهتم به الناس فعلا . لذلك ففن الإعلان هو عطاء هذا العصر فى الناحية الفنية ، وهو عطاء كبير .

أما العمارة فمسلوبة القيمة .

والعمارة عبارة عن بناء وقيمة . ولما كان إنسان اليوم يبحث عن القيمة المادية فقد أصبحت قيمة البناء قيمة مادية وليست إنسانية . لكن قيمة العمل الفنى لابد أن تكون قيمة إنسانية .

ولأن عصرنا تجتاحه عملية نحر وتجريد للإنسان من إنسانيته بحيث أصبح الإنسان وحدة اقتصادية وليس قيمة ، أصبح فن الإعلان هو الفن السيد اليوم ، حتى إن الفنان نفسه أصبح أهم هدف له هو الإعلان عن نفسه ، لأن أحدا لا يرغب فيما يقوم به من عمل فنى ، فأصبح لا يعبر عن نفسه بل يعلن عنها .

لذلك فإن الفن اليوم يستحق أن يترك جانبا إلا النادر منه .

إنما الفن فى العصور الكبرى كان هو طريقة حياة الناس . . كيف وجودهم . . هو الذى يعيشون به . . ويحبون به . . وينمون به . . ليس أسلوب حياتهم فقط بل كانوا ينمون عن طريق هذا العمل الذى كان يكوّن كيانهم ، ويحقق إسلامهم . «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» . إن «العمل صلاة» هو العمل الذى تتجلى فيه مجموعة من القيم القدسية ، والقيم الإنسانية العالية السامية ، وليس هو المنتج من المصانع والمسلوب القيمة .

يقول «ألدس هكسلى» فى مقال له عن المحبة. «إن العالم المعاصر خلو من المحبة وملىء «بلا حب منظم» موجه ضد الإنسان». .

إن الفنون الأساسية قتلت فى هذا العصر، وتعتبر الفنون الأساسية هى فنون الإناء والكساء والبناء والكتاب وأدوات المعيشة التى كانت تصنع وفيها الحب بالمعنى الكبير، أى حب للإنسان الذى سوف يستعملها. أما اليوم فإن الآلة تسلب الإنسان إنسانيته وتبتز نقوده.

أرجو ألا تتصوروا أنى أعنى أن الحياة فى العصور الفرعونية أو المسيحية أو الإسلامية كانت حياة مثالية. أبداً لقد كانت بها عيوب كثيرة.

كذلك لا تظنوا أنى أسلب العصر ميزاته الكبيرة فقد تكلمت عنها كثيراً. إنما أركز أساساً على الإيجابيات الموجودة فى كل العصور حتى يكون هناك مجال للعمل المستمر. . ولا عصر كامل.

فإذا تتبعت وفهمت لماذا أخذ الفن المصرى هذه الصورة. ولماذا اهتم هؤلاء الناس بأعمالهم إلى حد الروعة دون أن يطلب أحد منهم تشجيعاً من الدولة. لوجدت أن الثقافة والفن كانت كأمر طبيعى لديهم.

ولو انتقلت للفترة الهيلينستية وتأملت ماذا أصاب الفن. .

ثم إلى الفترة المسيحية، لأدركت التغير الذى تم عن طريق صحبة الفنون. .

أتكلم عن كيفية فهم الفن ووظيفته وغايته وهدفه.

وهذا هو الطريق الذى يساعد الإنسان فى فهم الفنون الكبيرة ومنها الفنون الإسلامية.

فيحسن أن تعاشر الفن من ولادتــه وعبر العصور وفى ظروف مختلفة حتى يحصل عندك رؤية بصيرية لمعنى الفــن وقيمة الفن. بحيث تدرك مدى الخسارة لغيابه من الحياة.

ومن ذا يدرك أهمية الفن إذا لم يعرف الفن. أو العلم ولا علم له بالعلم. فلكى نعرف ماذا يعنى فنا وماذا يعنى علما وما أهمية وقيمة كل منهما فلابد من مصاحبتهما فى رحلتهما لنعرف ما فائدتهما وما أهدافهما وما معناهما وأمكننا أن نعد الجمهور الذى يفهم مثل هذه الأمور ولانخشى المستقبل.

٢ ـ الأساس الذى تقوم عليه هذه الأصالة

فى حديثنا عن الفنون الإسلامية: أهميتها وأصالتها، لا أتكلم من زاوية المؤرخ أو عالم الآثار. ولكنى أتكلم من ثلاث زوايا أخرى:

١ ـ زاوية الفنان الذى يهمه فى المحل الأول جانب الخلاقية.

٢ ـ زاوية الإنسان الذى يهمه فى المحل الأول معنى وجود الإنسان فى الحياة.

٣ ـ وزاوية المسلم الذى يهمه كنه جوهر الإسلام.

أما الجانب التاريخى والأثرى فنتركه لأربابه وأصحابه فهم أصحاب الحق فى التكلم فيه.

أصالة الفنون الإسلامية، ومعنى الأصالة هو الشق الأول من حديثنا هذا العام؛ لأن كلمة أصالة تتكرر اليوم. وهى موضع فكر كثير من المعاصرين خاصة الذين يريدون الجمع بين الأصالة والمعاصرة سواء على المستوى الفردى أو المستوى القومى.

فما هو معنى الأصالة؟

هناك فكرة متخلفة من رؤية فى علوم الحياة، حين كان يُظن أن الكائنات الحية يمكن أن تخلق من مادة غير حية فى ظروف معينة. ثم اتجه علم الحياة الحديث إلى أنه لا يمكن لكائن حى أن يوجد من غير سلف له حى يخرج منه.

ففكرة الأصالة عند بعض المثقفين تمت إلى هذا الفكر القديم: أى أنه من الممكن أن يوجد، أو ينبغى للفن الأصيل أن يوجد من لا كائن حى.

والحقيقة أن الكائن الحى فى الحياة لابد أن يخرج من كائن حى ولايمنع هذا أن يكون الوليد الجديد أصلا: فالابن يولد من أم وأب ولا يمنع هذا أن تكون له أصالة فى كيانه المادى وكيانه المعنوى. هذا من طبيعة الخلق.

ففكرة الأصالة فى الفن باعتباره فنًا لا يدين لفنون أخرى سابقة عليه فكرة خرافية علينا أن ننحيها جانبًا. فلابد للفنان الأصيل من أصول هو يمت إليها ولا يعيبه هذا، إنما العبرة بالقولة الجديدة التى سيقولها.

لذلك بدأنا حديثنا السابق بقضية كبيرة هى أن الفنون الإسلامية تقوم على قاعدة من خلاصة الفنون الأساسية التى نشأت فى العالم القديم أى خلفيتها الحضارية.

والفنون الأساسية مثل الإناء والكساء والبناء والكتاب وسائر أدوات الحياة ومتطلباتها وليس مجرد النحت والتصوير إذ إنهما لا يعتبران فنين أساسيين.

وإذا تكلمنا عن أى عمل فنى فقد يظن البعض أن الحديث قد ينصب على الخشب أو المعدن أو البرونز أو النسيج أو . . إلخ .

والحقيقة أن العمل الفنى هو فى الجهاز العصبى للإنسان. أما هذه المواد فهى وسائل لتحضير خبرة تحصلت من قبل فى أساسياتها فى الجهاز العصبى للفنان المبدع. العمل الفنى يظل جسماً ماديا حتى يلقاه من يفهمه؛ فتمثال الحجر يظل قطعة من الحجر أمام العامة، حتى يراه الذواقة الفنى الذى يرى أن هذه القطعة من الحجر ما هى إلا وسيلة لما يمكن أن يثار من معان. وكالكتاب مثلاً.

فمعنى القرآن غير الغلاف والورق.

وقد قلنا إن البشرية حين دخلت أفق الحضارة تحركت على خمسة محاور.

والحضارة بالنسبة لنا ليست كلمة غامضة . .

ولا هى الوسائل المادية فقط.

بل هى تشمل الوسائل المادية وتتعداها لما هو أهم؛ لأن الوسائل المادية مجرد وسائل. أما ما تصنعه بهذه الوسائل فهو الأهم لأنه من الجائز أن ينزل بك أو أن يسمو بك.

فالحضارة تتطلب النمو على تلك المحاور الخمس التى ذكرناها.

فإذا تكلمنا فى ضوء تاريخنا باعتبار مصر من مراكز الإبداع المهمة فى العالم القديم الذى كان رائدا للحضارة، فإنى أشرح من النقطة الأولى وهى «علاقة الإنسان بالإنسان» كيف يصطلح الإنسان مع نفسه باعتباره تساؤلاً وبحثًا.

كيف أصطلح مع نفسى؟

هنا تأتى أهمية فن التربية، والهدف منه فى تربية الإنسان لنفسه:

قيل أحبب أعداءك. ولما لم يقدروا على ذلك قيل افهم أعداءك. والحقيقة أن الفهم خطوة للحب. ولكنهم يستخدمون هذا التعبير فى العصر الحديث بمعنى: افهم عدوك ليس لتحبه بل لتقهره.

فابدأ بأن تفهم نفسك. كما قيل فى حكاية سقراط وما كتب على معبد دلفى «اعرف نفسك» ولكى تعرف نفسك يحتاج الأمر إلى بحث طويل وسلسلة من الأحاديث ولكن لا بأس أن أشير إلى الطريق:

أنا أعرف نفسى حين أعرف الآخرين.

وأعرف الآخرين حين أعرف نفسى.

ومن الكلمات التى أعجبتنى فى هذا الصدد كلمتان للشاعر الألمانى «جيته» قال حين رأى أعمال «مايكل أنجلو» فى كنيسة السستان»: «إنى سعدت لأن إنسانا صنع هذه الرسوم وأنا إنسان مثله».

فاعتبر أن إبداع «مايكل أنجلو» فخر لكل إنسان لأنه رأى نفسه غير معزول عن «مايكل أنجلو» فبينهما وحدة الإنسانية لذلك اعتبر نفسه مشاركا فى هذا الإنجاز وهذا الإبداع.

وقال كلمة أخرى مقابلة قال «لم أسمع فى حياتى عن جريمة إلا وتصورت أنه كان من الممكن أن أكون مرتكبها».

كان يشعر بتعاطف مع المبدعين من البشرية ومع المسيئين منها. ويعتبر أنه كما له الحق فى أن يفخر بهؤلاء فعليه أن يخجل لأولئك.

هذا الشعور شعور إنسان صادق هو «جيته» الذى يرى الإنسانية إنسانا واحدا. وكل تصرف لإنسان ما، يشرح جزءا من كيانى كإنسان:

فحين أرى المخطئ أتلمس جانبا من ضعف نفسى. .

وإذا رأيت المحسن أتلمس أيضا جانبا من إمكانيات نفسى.

وهكذا فى الإمكان أن أعرف إمكانيات نفسى كإنسان. وحين أخطئ فلا داعى أن أشد شعرى، بل أعى أنى بشر. والبشر يمكن أن يخطئ. وهناك من يمكنهم أن يتغلبوا على الخطأ والخطيئة، ويبرءوا منها، بل ويتفوقوا عليها ويبدعوا، ويصلوا لمراتب قد تكون مراتب القداسة. . والقداسة فى الطرف الأعلى والخطيئة فى الطرف الأسفل.

والحقيقة، أننا حين نصادق الناس . . أو نطّلع على أعمالهم . . أو نتأمل الفنون ونسمع الموسيقى ونقرأ الأدب، فنحن نبحث عن أنفسنا . . نبحث عن أين نحن

مقيدون فى أنفسنا لنحاول فك القيود وتوسيع النفس. فإن هدفى ـ طوال الوقت ـ من ثقافتى ومن نموى، أن أصحح نفسى ومسار حياتى.

وحين يجد الإنسان فى داخله تعاطفًا مع كل الخاطئين ومشاركة مع كل المبدعين فإنه يعتبر نفسه قد نما كإنسان لذروة ليس من السهل الوصول إليها.

وبالقدر الذى يصل إليه فى هذا وذاك يكون قدر نفسه.

فحين نقارن الصور الشخصية من الحضارة المصرية القديمة بعامة نجد فيها نوعا من الطمأنينة والسكينة دليل الصلح مع الذات، على خلاف ما نراه مثلاً فى الصور الرومانية، التى تبدو فيها النفس متأزمة. فى حين النفس المصرية القديمة مطمئنة.

ويقول الراهب المصرى: اصطلح مع نفسك أولاً يصطلح معك العالم.

وأرجو أن يكون ما قلته يشرح هذا المعنى.

* * *

وإذا وصل الإنسان إلى ذروة نموه يصبح غذاؤه الحق، والآلهة فى مصر القديمة كانوا يتغذون على «الماعت» أى الحق.

وفى الهندوكية يقول الحق «أنا غذاء كامل النضج».

فإدراك القانون الأخلاقى ـ هو من محاور الحضارة الخمسة ـ طريق. أما الحق فى ذاته فهو المبدأ الروحى ـ وهو أيضا من محاور الحضارة الخمسة.

فماذا يعنى المبدأ الروحى؟

حين يشعر الإنسان ـ فى نظرته للكون ككل وكأجزاء ـ أن الشجرة مثلاً ليست مجرد شجرة، والحجر ليس مجرد حجر، والسحابة ليست سحابة فقط وهكذا.. بل إن هذه كلها لها طبقات وجود متعددة قد يعرفها بعض الشعراء الذين يرون عن طريق البصيرة ما ترمز إليه هذه الكائنات المادية.. يرون أن كل الكون شهادة على مبدأ أسمى هو الله. وهو المبدأ الروحى.

ودون أن يدرك الإنسان أن الكون ـ رغم محدوديته ـ يدل ويشهد على مبدأ واحد روحى لا مادى ولا محدود فإن حضارته تكون ناقصة.

هذا فى ضوء حضاراتنا هو الطريق الذى ينمو عليه الإنسان. وهو ليس أمرًا سهلاً. فالوصول للكمال فى مثل هذه الأمور كلها ليس سهلاً. ولكنه يتحقق فى

أفراد متعددين من البشر بدرجات متفاوتة وهؤلاء هم عزاء للإنسان الفرد. فبعض الناس من هنا والبعض من هناك يتممون المحاور الخمسة ويكونون منها صورة للإنسان الذى هو أملنا كلنا.

من هنا نقول إن العصور الوسيطة ـ أى المسيحية والإسلام ـ تحقق أمل العصور القديمة. وكأن التاريخ له امتداد واحد فى سعى الإنسان من البداوة الأولى إلى المطلق الكامل. وكأن هدف الإنسان أن يصل للمثل: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ وهو المطلق الكامل.

وللإنسان هذا القلق وهذا الشوق ـ وهو ما يفرقه عن الحيوان ـ وهو يقلق بحثا عن الحق والطريق. والطريق هو سياسة النفس وتنميتها وتشفيفها وتصفيتها حتى تقرب وتتسق مع ذلك المثل الأعلى قدر ماهو متاح للطبيعة البشرية الضعيفة.

وأزكى بحرص كتابا للأستاذ عباس العقاد عنوانه «الله» عن نشوء العقيدة الدينية عند البشرية كلها.

وأقول بحرص لأنى دائما أخاف من تسهيل الأمور للمتعلم. فقد كنا نلقن ونحن نعد لنكون مدرسين كيف نسهّل الموضوع الصعب للتلاميذ. وقد عملت بهذا المبدأ لفترة ثم ثرت عليه وبدأت أخاف من هذا التسهيل. ولو سألنى سائل عن الفن فلا أعطيه مجرد تفسير سهل يمكنه من أن يتكلم به فى أى مناقشة أو أى جلسة بحيث يبدو أنه يعرف وهو لايعرف وهذا خطر. ففى الأمور الهامة لاتوجد طرق مختصرة، ولكن توجد مراحل.

والأعمال الفنية الكبيرة للبشرية تعبر عن مكنون وأبعاد وأعماق مدركاتها وآمالها.

والفنون الإسلامية من ضمن شراح معنى الإسلام.

لذلك فإنى أقترح لمن يريد أن يفهم الإسلام أن يتعرف على الفنون الإسلامية وعلى المتصوفة المسلمين، ضمن ما عليه أن يتعرف عليه.

وحين قرأت كتاب «كيمياء السعادة» «للغزالى» قرأته أولاً باللغة الإنجليزية حين كنت فى «لندن» وشعرت بشوق كبير جدا لأن أفهم أعمق وأكثر.

فعند الشعوب الواعية تجد زبد معارف الحضارات المختلفة مقتناة إمافى المتاحف

أوفى مترجمات من الكتب؛ لأن الإنسان فى ضميره يعرف أن الإنسان إنسان واحد وإنه لكى يعرف نفسه لابد أن يعرف الآخرين جيداً؛ فى قممهم وفى مهاويهم.

تكلمنا فى المرة السابقة عن كيف أن الفنون الإسلامية هى حصيلة رؤية الحضارات القديمة. وقلنا إن الموقف الإسلامى من الوجود ومعنى الإنسان كان وراء الفن الإسلامى، وهما سر أصالته، ونحاول اليوم أن نتكلم عن سر أصالة الفنون الإسلامية. ليست أصالة الفنون الإسلامية فقط بل وأصالة الفن الهندى والفن الصينى وأصالة عصر النهضة وأصالة الفنون الكبيرة. فما السر وراء انتقال الفن فى أوروبا مثلاً من العصور الوسيطة للنهضة؟ السر هو أن وجهة النظر فى «معنى الوجود» و«معنى الحياة» و«معنى الإنسان» تغيرت فى عصر النهضة عنها فى العصور الوسيطة وهذا هو ما أعطى تلك النظرة الجديدة أعطى فن النهضة.

وماذا دعا الإنسان فى العصر الحديث إلى عمل الفن الحديث؟ لأن وجهة النظر التى كانت خلف عصر النهضة والتى نلخصها فى «الفلسفة الإنسانية» ـ والتى كانت بدايتها فى الإغريق ثم تغيرت فى عصر النهضة حيث كان «الإحياء». تغيرت مرة أخرى فى العصر الحديث.

أنبه إلى أن هناك فرقا بين إحياء عصر النهضة وفلسفة الإغريق الإنسانية ؛ فأوروبا لا يمكنها أن تقيم التكامل. . فحين كانت تحت تأثير المسيحية تركت الإنسان وأصبح همها الأساسى الوصول للملأ الأعلى وقد تُرجم هذا الشوق فى العمارة، خاصةً العمارة القوطية. . فالفن البيزنطى جاء فى نفس المنطقة التى كان فيها الفن الإغريقى ولكن شتان بين شخوص الفن الإغريقى الناضجة جسديّا، والريانة بحياة الإنسان وبين تلك التى جفت فى الفن البيزنطى؛ هى جفت من ناحية الجسد، ولكنها أصبحت ريانة من الناحية الروحية التى كانت تنقص الإ غريق. هذا ما أسميه العجز عن التكامل فى المجتمع الأوروبى ككل، فهو حين يتنبه لجانب من الحقيقة، وجانب من الوجود البشرى السوى، يكون ذلك على حساب جوانب أخرى كما هو حادث فى هذه الأيام؛ فهو يهتم بناحية مهمة جدا هى علاقة الإنسان بالكون، من ناحية علاقة السبب بالنتيجة، التى تعطى الإنسان القدرة أن يسخر الأشياء الموجودة. وهو لايمكنه تسخيرها دون فهم علاقات السبب والنتيجة وأسباب الحدوث. ولأنه ـ وهو الرائد فى العصر الحديث ـ لم يتمرس فى فن التكامل أمسك بجانب العلم بمفهومه الحديث، الأمر الذى كان ينقص العصور

السابقة. فتلك العصور رغم علومها المعروفة إلا أن إدراكها العلمى بدائى وقليل بالنسبة للعصر الحديث، الذى أصبحت فتوحاته العلمية الكبيرة معجزة العصر، رغم أن جذورها فى العصور القديمة . . . ولكن هذا النصر العلمى على حساب إنسانية الإنسان، كما كان الأمر فى العصر البيزنطى حين كان النمو الروحى على حساب امتصاص بشرية الإنسان كما هو واضح فى الفن. فأوروبا اليوم فى الوقت الذى تقوم فيه بعمل نمو مهم إلا أنها تنحرف. . فهى تكسب مكسبا كبيرا. وتخسر فى نفس الوقت خسارة كبيرة، تكسب القوة والقدرة والثراء، وتخسر معنى الحياة الذى كانت تمثله المسيحية من قبل.

فإذا قارنت بين الإنسان فى الفن المصرى القديم والإنسان فى الإغريقية تجد فى الإنسان المصرى التكامل بين هذا الوجود الأرضى والوجود العلوى؛ أى أن هناك الجانب الجسدى والاهتمام بالأرضيات وبالواقع، وهناك الجانب الروحى فى نفس الوقت معًا.

وقد كان من ألطف ما قرأت من مقالات لتوفيق الحكيم، خطاباته لطه حسين التى كانت تنشر على صفحات «الرسالة»، وكان توفيق الحكيم يشرح فيها الفرق بين الشخصية المصرية والشخصية الأوروبية، فقارن بين النحت المصرى لجسم الإنسان والنحت الإغريقى له وكان ذلك فى الثلاثينيات الأولى.

أريد أن أشرح فقط كيف أن العالم القديم وهو العريق فى الحضارة ـ أعرق من أوروبا بآلاف السنين ـ كان يأخذ الأمور بمجهوده ويكسبها وينمو بها على مهل. وهذا خلاف من يأخذ الأمور خطفا دون أن يكون قد نماها وغنته وتوحدا. كذلك أحذر من كتب المختصرات فهى خسارة لأنك ستجد نفسك بعد حين قد تصورت أنك تعرف الحضارة الأوروبية مثلاً بعد قراءة كتاب أو كتابين من مثل هذه الكتب. كما قد تظن أنك تعرف معنى مصر لمجرد وجودك فى مصر وميلادك فيها.

إن مصر ليست هى الفنون الشعبية فقط. .

ولا هى العادات القديمة. . فقط. .

أو الأحياء من العصور المختلفة. . فقط . .

مصر معنى كبير ولكى تعرفه تحتاج لمجاهدة كبيرة.

كذلك لكى تعرف معنى أوروبا. .

أو لكى تعرف معنى الدين .

أو معنى الإنسان . .

لابد أن تحصن نفسك ضد كتب المختصرات ، التى تعطيك فكرة أنك تعرف ، وأنت فى الحقيقة لا تعرف . . وأكرر جملة ليست لى ولكنى أؤمن بها هى «أنت تعلم إذا أصبحت ما تعلم» فأنت لا تعرف العلم إلا إذا أصبحت عالما . . ولا تعرف الفن إلا إذا أصبحت فنانًا . . ولا تعرف الصين إلا إذا أصبحت صينيا . . ولا تفهم مصر إلا إذا أصبحت مصريًا . . مصريًا ليس ببطاقة تحقيق الشخصية . ليس هذا هو الأساس إنما المعرفة بالذوق . ويقولون «إن من يذوق يعرف» فهل يمكنك أن تعرف طعم الموز مثلا دون أن تذوقه! قد تقرأ مائة كتاب عن زراعة الموز وطعمه وشكله وكلها لن تغنيك شيئا فلن تعرف طعم الموز إلا إذا ذقته . كذلك فى المسائل الثقافية والروحية . فهل تعرف الإخلاص! نعم كلاما . . حتى تصبح مخلصا . ويقول الشاعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابدهُ ولا الصبابـةَ إلا من يعانيـها

هذه هى المعرفة بالذوق ، المعرفة بالاتصاف ، بالخبرة ، بالمكابدة ، بالمعاناة .

إلا أن بعض الناس قد يتصور أن الذوق هنا معناه الذوق باللسان . وليس هذا ما نعنى إنما نعنى الذوق بالخبرة والخبرة الوجدانية أصعب من الخبرة الذهنية .

لذلك ندعى أن الفنون الإسلامية أصيلة بدعوى أنها الخبرة بالموقف الإنسانى الذى جاء به الإسلام ؛ أى :

ما معنى الوجود؟ هو الله .

ما معنى الحياة كلها؟ هى طريق صاعد إلى الله .

ما معنى الإنسان؟ خلافة الله فى هذه الحياة .

وإياك أن تظن أنك عرفت لأنك حفظت هذه الجمل الثلاث . إنى أقولها للشرح فقط لأنها من الركائز الأساسية الإسلامية .

نعرف أن الرؤية الإسلامية نشأت فى الجزيرة العربية وسط قوم كان اتصالهم بالعالم من حولهم موجودًا إلى حد ما . ولكنهم كانوا يعيشون فى الجاهلية . .

ورؤاهم كانت محدودة. وكانوا يقولون إنهم يتقربون بأصنامهم زلفى إلى الله الذى كانوا يعرفونه اسماً.

ولكن الرؤية الإسلامية التى هى لا إله إلا الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وإنه هو صاحب الأمر كله، كانت رؤية جديدة بالنسبة لهم؛ لأن صورة الله الذى لا إله غيره مثلت قمة متنامة ومتكاملة فى معنى الألوهية. فإلى جانب التوحيد، هناك التعبير الوافى والوافر والكامل عن معنى الألوهية. وتكلل هذا بأنه ليس كمثله شىء. كانت هذه رؤية جديدة تماما.

وبالتالى فالفن الذى ينشأ نتيجة هذه الرؤية سيكون:

١ - فيه الوعى بالقداسة؛ لأن هذه القداسة معناها أنه شىء آخر غير المعروف وغير المألوف وغير المعهود.. هذا الحس بالقداسة أو الوعى به والقدرة على تركيبه فى أعصاب الإنسان عن طريق الأعمال، ميزة من ميزات الفن الإسلامى وغيره من الفنون الدينية الكبيرة.

نعم القداسة واحدة ولكن هناك فرقا بين جامع السلطان حسن وبين كاتدرائية «شارتر» مثلاً. ففى «شارتر» ترى القداسة فى ضوء الرؤية المسيحية وفى السلطان حسن ترى القداسة فى ضوء الإسلام. وهذا الفرق يمكنك أن تدركه عن طريق الذوق.

وإن كنت تريد أن ترى مثلاً آخر للقداسة فى نور الإسلام فاذهب لضريح الإمام الشافعى، ترى القداسة رأى العين، وتحسها فى جسمك كله، وليس فقط فى عينيك وفى قلبك.

أنا أتكلم عن عمارة الضريح، وليس شخصية الإمام الشافعى، لأنها وحدها تقربك كثيراً من الإسلام لو قرأت عنها.

ومن أجمل ما قرأته فى هذا الصدد ما كتبه الأستاذ «أمين الخولى»:

«.. وحين أراد الفنانون المسلمون تكريم هذا الإمام العظيم بنوا له مقاما يليق به فعلاً. ولو كان الأمر بيد الأوروبيين لأقاموا له تمثالاً».

إن هؤلاء المسلمين عبروا عن جوهر معنى الرجل الذى تفانى فى شرح جانب من جوانب الإسلام بإقامتهم هذا الضريح الذى تشعر فعلاً -إذا وُجدت فى حضرته- بطرف من القداسة التى يتفانى فيها المسلم.

أما جامع السلطان حسن ـ وقد زرناه لمدد طويلة ـ فإنه منذ أن يهل عليك، حتى تدخل وتصل للداخل، وتخرج، وأنت فى جو بحر من القداسة فى ضوء الإسلام، يعبر عنها الفنان المسلم الذى يأخذ فكرته من رؤية الإسلام للوجود.

والميزة المغايرة بين القداسة فى نور الإسلام، والقداسة فى نور المسيحية، أنه فى الأولى لا تجد تمثالاً واحداً، ولا صورة واحدة، فى أى من هذه الأماكن الإسلامية.. بعكس المسيحية وغيرها من الديانات التى لم تنح الصور بل ركزت عليها..

٢ ـ التجريد فى الإسلام؛ لأنه قال ليس كمثله شىء، رفض أن يكون للصورة دخل فى الموضوع.

ولما كان لابد من أن يعبر الفن عن القداسة، كانت وسيلته إلى ذلك هى التجريد.

بينما فى الفن المصرى القديم يوجد «آمون» و«رع» و«أوزيريس» وغيرهم من الآلهة. وكل منهم له صورته.

وفى معابد الديانة الهندوكية ترى مئات الآلهة مصورة. وهذا طرف نقيض، فهم يتعبدون هناك لهذه الآلهة الكثيرة.

ولكن فى الإسلام الله واحد أحد. وليس كمثله شىء.

فبينما المعبد الهندوكى يتطلب العديد من صور الآلهة نجد المعبد الإسلامى فيه التجريد والتوحيد.

كونك مسلمًا تؤدى كل الشعائر، فأنت مسلم فى نظر الشرع. ولكن لتكون مسلمًا قلبيًا عليك أن تحقق فى قلبك فعلا رؤية ذلك الواحد الذى ليس كمثله شىء. وأن تراه فى كل الكائنات من حولك أى «فى الآفاق وفى الأنفس».

وهذه الرؤية هى ما يسميها المتصوفة المسلمون وحدة الشهود؛ فإذا تأملت الطبيعة ـ ليس على طريقة الرسم النظرى: سطح وشكل وظاهر من الأمر، بل تأملتها بكل جوارحك وكل قدراتك ـ فأنت ترى أن كل شىء فيها يشير إلى أن هناك واحدا أحدا لا شبيه له.

فإذا حققت هذا، تتكون عندك رؤية خاصة إسلامية للوجود وللحياة.

٣ ـ وهنا يوجد سر ما يسمى بالأرابسك.

والأرابسك اصطلاح غير موجود عند الفنانين المسلمين الذين عملوا الفن الإسلامى، إنما هى كلمة الأجانب عن الزخارف الإسلامية.

وأنا لا أعتبر الفن الإسلامى فنا زخرفيا بالمعنى الذى يقولون عنه. هو، كأى عمل فنى آخر، لابد أن يكون به شيء من الطلاوة الزخرفية. ولكنه ـ فى الجوهر ـ بعيد عن الزخرف كغاية.

إذن ما هى وظيفة ما يسمونه بالزخرفة؟

هذه الزخرفة لها وظائف لا تعد ولا تحد، وليس من السهل حصرها ولكن من بينها:

أننا لو أخذنا هذه الزخارف الإسلامية بصورة عامة، فإنه يمكن لنا أن نرجعها من ناحية التاريخ لما يسمى "شجرة الحياة" التى كانت موجودة فى فنون العالم القديم.

ولكنها فى الرؤية الإسلامية لم تكن مجرد مسألة رمزية بسيطة:

لأن الوجدان الإسلامى يتأمل الخلق كله

على تنوعه وتعدده إلى غير حد، وتداخله

وترابطه وتبادله، وكل صفات العلاقات

مع بعضها البعض، ويراها كما لو كانت

كل وحدة، تصنع شجرة واحدة.

وكأننا حين نرى محرابا من المحاريب الموجودة هنا فى المتحف، كمحراب السيدة رقية مثلاً، أو السيدة نفيسة، أو حين نرى بابا كباب قلاوون، أو ضريحًا كضريح قلاوون نفسه، نرى بناء من النظام المتعدد.

الأشكال بعضها فوق بعض طبقات مؤتلفة وصاعدة إلى أعلى.. شجرة واحدة.

فكان الفن الإسلامى يرمز إلى الكون بطريقة مجردة، يأخذ فيها النبات كرمز ﴿**وأنبتكم من الأرض نباتا**﴾. حتى الإنسان يعتبر من الأرض فكلنا من تراب وإلى التراب نعود.

فهو يعطى وحدة الشهود ـ كما يراها ـ فى صورة رمزية، يسمونها أرابسك.

حتى فى الأطباق النجمية، تجدها متشابكة، وهى تصنع بطرق متعددة. . وما أكثر النجوم فى الفن الإسلامى. . لا عد لها ولا حصر ومعمولة على شبكة هندسية متعددة. وكلها فيها ناحية الإشراق؛ إشارة إلى الخبرة الدينية. التى هى نور يشرق فى القلب وبفضله نرى الوجود الحقيقى والمعنى من وراء الظاهر.

وهناك رؤية شعبية تتكلم عن «شجرة طوبى»: شجرة فى الجنة، يقولون إنه لا توجد غرفة فى الجنة إلا وفيها فرع منها، وجذرها معلق بساق العرش.

ويمكن أن يكون هذا رمزا للفن الإسلامى بكل الأرابسك الذى فيه. إذ لا يوجد مكان فى الفن الإسلامى إلا وفيه فرع من هذه الشجرة.

وهناك مقال جميل للمتصوف الكبير «ابن عربى» عن شجرة الكون.

وأحسبنى أعتبر أن عقل هذا الرجل وكأنه أرابسك لغزارة الوشى فيه.

وهذا ما أردت الوصول إليه:

إن العقل الإسلامى عقل فيه سمات الأرابسك. .

فقصص ألف ليلة وليلة. . والفتوحات المكية أرابسك

وفصوص الحكم. . وإحياء علوم الدين أرابسك

وروائع المنجزات الإسلامية أرابسك

إن الكتب الكبيرة لمنجزات الثقافة الإسلامية لا تجد فيها البساطة الإغريقية التى تجدها فى التمثال الإغريقى أو فى المعبد الإغريقى، ولكن فيها ما تجده فى المدينة الإسلامية التى يمكن أن تتجلى فيها سمات الأرابسك.

٤ ـ ومن وظائف الأرابسك أيضا أنه تشكيل وشرح وهوامش تضيف لمعنى العمل الفنى. وهو ليس شيئا مضافا لاصقا عليه مستقلا عن جوهره، بل هو تأكيد وشرح وإتمام لمعناه؛ فلو رأيت على الإناء، أو على الكتاب، أو على الجدار جزءا من زخرف، فانظر إلى تأثيره بالنسبة للشكل العام المطلوب، وماذا يكون فى هذا المكان بالذات، حينئذ يمكنك أن ترى أن الزخرفة الإسلامية ليست زينة مضافة بقدر ما هى شرح وتأكيد وتدعيم وتكميل.

٥ ـ الرؤية الإسلامية مفعمة بالحساب والهندسة والناحية الرياضية، فهناك مثلاً. . الحسنة بعشرة أمثالها . . سبعون ضعفا . . عدد الركعات . . وكل شيء بقدر . . والجرس الموسيقى لكلمات القرآن فيه رياضة . . ثم إن اليوم الآخر هو يوم الحساب.

فتجد أن الفن الإسلامي معمور بهذا الشفيف الحسابي . . بهذه العاطفة الرياضية.

٦ ـ المشهور عن الفن الإسلامي أنه عزوف عن الطبيعة إلا قليلاً، بينما الوجدان الإسلامي ـ كما هو موجود في القرآن ـ يؤكد أكثر من أي ديانة أخرى، على تأمل الطبيعة وتدبر الكون، لأن الطبيعة هي القرآن المرئي. وهو يؤكد أهمية هذا لأنه طريق إلى الإيمان، وإلى رؤية الله قلبياً.

وكان من نتيجة هذا التأمل شيء عجيب في الفن، لم يُشر إليه في التعليق على الفن الإسلامي من قبل هو:

أن منجزات الفن الإسلامي هي بمثابة عالم ثان،

يوازي ويحاذي ويضاهي في منطق بنائه

بناء العالم الطبيعي.

أي أن الفن الإسلامي حين يؤلف إناء أو بابًا أو بناء فإن هذا المؤلف ينبض بنبض الحياة الطبيعية:

إن جسم الإنسان معضون أي مكون من أعضاء وكل عضو من أعضاء وكذلك الكائنات العضوية الأخرى. هذه العضونة للكائن العضوي الحي نجدها في الفن الإسلامي؛ ويمكن ملاحظة ذلك إذا قارنا سجادة حديثة بأخرى إسلامية، أو إناء نحاسيًا، أو شمعدانًا، أو أي عمل إسلامي بنظير له غير إسلامي.

ورغم كل الهندسة المبثوثة في العمل إلا أنها أعمال، أو كائنات معضونة تمت إلى صميم الحياة في مظهرها الحي: فلها الحضور . . ولها منطق بناء العالم العضوي . . فالهندسة الإسلامية هندسة عضوية.

٧ ـ شيء آخر تنجح الفنون الإسلامية في أن تقربنا به من معنى الإسلام؛ قلنا إن الله يهدينا إلى أن نتأمل الخلق لنتقرب إليه . . وبتأملنا الخلق نجد من خلال هذه العضونة لا محدودية آسرة.

الفن الإسلامى شغوف بهذه اللا محدودية الآسرة.

يركبها فى العمل الفنى، ويوحى بها للمتلقى.

فحين نتأمل عملاً إسلاميا كبيرا، نجد أنه من السهل أن نلم بكل أطرافه. والمتحف هنا حافل بأعمال قمم. ذكرت منها المحاريب المتنقلة للسيدة رقية والسيدة نفيسة: المحراب يكاد ينطق بما يوحيه الخلق الطبيعى، وقد كشف عنه حجاب الرؤية السهلة التى ظاهراً من الطبيعة فحسب.

وكثير من الفنون تشتغل بهذا الظاهر وتظن أنها تتواصل مع الطبيعة، وهى أبعد ما تكون عن أغوارها.

تصور، الإنسان بكل ما فيه من شرايين وأوردة وأعصاب، تشعر أنه لا يوجد جزء إلا وفيه من هذه الشبكة العظيمة.

وتأمل قطعة من الأرابسك.. وقطعة من الفن الإسلامى.. ترى شبكة من التشجيرات والتفريعات لا حد لها. والكل وحدة واحدة.

إن شرح الغزالى للرؤية الدينية يقول إنه بمزيد من التأمل فى الحياة فى هدى الفكر الإسلامى ترى العالم كله فى حكم إنسان واحد، أجزاؤه مترابطة بعضها بالبعض، ومتداخلة، وفيها وحدة.

هذه هى الرؤية الإسلامية، وهى الرؤية التى يعكس الفنان الإسلامى طرفا منها فى أعماله العظيمة، إنى أحاول أن أشرح كيف أن الفن الإسلامى وليد الرؤية الدينية الإسلامية بخصوصياتها.

٨ - ومن هذه الخصوصيات كما قلنا، العالمية؛ أى لا عصبية قبلية، ولا جنسية ولا إقليمية، ولا عنصرية، إنما للعالم كله.

وقد تطلب هذا ألا يعمل الفنان المسلم من الهوى الشخصى، إنما هو يستهدى الله فى عمله، ويحاول أن يعبر عن محصول وجدانه - من تأمله فى العالم - من الأنظمة وأنواعها المختلفة ويبثها عمله الفنى، بحيث يفصح العمل عنها. وهو يكلم الناس كافة عن طريق هذا العمل. وهو يتأمل الطبيعة؛ صنع الله.

فكأن هناك عقلا واحدا مشتركا

وراء الفنون الإسلامية من العصور

المختلفة ومن الأقاليم المختلفة ومن شتى الشعوب.

هذا العقل المشترك هو المسئول عن الوحدة، فى نفس الوقت الذى يتسم فيه بميسم القطر والعصر: فمذاق العطر الفاطمى للفن الإسلامى فى مصر يختلف عنه فى العصرين المملوكى والأيوبى وهكذا.

وكذلك فى كل بلد من البلاد التى أضافت إلى عطاء الفن الإسلامى.

٩ ـ والمهم أنه مع هذه العالمية لا تغيب محلية المكان، ولكن الكل يسير وفق قانون علوى: أى أنه ليس كالفن الحديث الذى يعبر فيه الفنان عن نزواته الشخصية عادةً.

ولكى ندرك شيئًا من هذا كله نصاحب الخط فى الفن الإسلامى:

كانت الكتابة العربية ـ قبل الإسلام ـ خلوا من أى قيمة فنية على الإطلاق.

ثم بدأت تنمو مع نمو شجرة الفن الإسلامى. ففى الوقت الذى لابد أن يعبر فيه كل حرف عن ذاته، وجدت القدرة على التنويع فى الخلق التى اكتسبها الفنان من تأمله لخلق الله، ووجد أنها تنويعات على مجموعة أفكار أساسية لا حصر لها، ومع ذلك فهناك وحدة.. فيأتى الفنان فى كون مواز ـ هو الكتابة فى الفن الإسلامى ـ وينوع أقلامه ويخلّق منها كائنات لها حيوية. وهكذا وجدت مدارس الخط والأقلام المختلفة.

والفنان المبدع.. الخالق، يبتدع القلم دون تعمد قاعدة رياضية محسوبة، إنما نتيجة تأمله للطبيعة وللتراث تنبثق من داخله هذه الرؤية الجديدة.

وهذا الجديد الذى انبثق من رؤية الفنان المبدع، له قانونه الرياضى، ولكنه بإيقاع مختلف، يكشف عنه الشراح فيما بعد حين يكشفون القاعدة ويحللون كل حرف وكل كلمة.

الفنان الكبير يعمل من أفق الخلق الموضوعى.

وكل الفنون الدينية الكبيرة تستلهم ناحية موضوعية..

تستلهم المثل الأعلى. ومن هناك تستمد الرياضيات المختلفة.

ولا يقفل باب الإبداع فى الفن إلا إذا أغلقه الفنانون بإغلاقهم أنفسهم دون المدد.

١٠ ـ هناك نقطة هامة وأخيرة هى «أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» .

هذا الإتقان . . هذا العشق للإتقان فريضة . أن تعمل الجميل المتقن ليس فى الفن فقط بل فى الحياة، فريضة، لأن هذا هو ممارسة عشق الجمال المعنوى، وهو أهم من الجمال الشكلى .

هو جمال الله وكماله وجلاله . وهو الخالق البارئ المصور .

٣ ـ أربعة مداخل إلى رؤية أصالة الفنون الإسلامية

نحن نحاول سويًا أن نتقرب إلى الفنون الإسلامية الموزعة ـ حاليا ـ فى متاحف العالم وفى الكتب وفى بعض الآثار الإسلامية فى بعض البلاد التى عاش فيها الإسلام وأنتج .

وعلينا أن ندرك ـ مسلمون وغير مسلمين ـ أنها جزء هام من تراث البشرية . فى ناحية تتضمن جانبًا من جوانب أساليب الحياة، وإدراك المبدأ الروحى فيها، والعمل فى نور هذه الرؤية لأكثر من ألف عام من الإنجاز الثقافى الفنى .

وأرجو أن يدرك الجميع أن محاولتنا التقرب هذه، محاولة ليست سهلة . طبعا من السهل أن يزور إنسان جامعا أو يشاهد قطعة من النسيج الإسلامى أو إناء إسلاميا أو أى أثر من هذه الآثار . . ولكن هذه الرؤية شىء وأن يتصادق فعلا مع الفنون الإسلامية ككل حى . . ويتعرف عليها من جذورها إلى ثمارها، شىء آخر .

فهى عملية تتطلب معالجة نفسية فى المحل الأول . .

وتتطلب جمعًا ـ فى وعى الإنسان ـ لقدر من الإنتاج الإسلامى قد يساعد على إعطاء تصور عن هذه الفنون ذات الصفة الشمولية :

شمول من ناحية أنها تشمل الناس كافة . .

وشمول من ناحية أنها تتجاوب مع كل جوانب الحياة فيما يحتاجه الإنسان من الميلاد إلى الوفاة .

وفى حالة تمام التواصل مع هذه الفنون يزداد كيان الإنسان أبعادا لم تكن متاحة

له من قبل لأن الإنسان يكسب سعة فى أفقه النفسى مع كل صداقة من الصداقات مع المنجزات الرائعة من صنع البشر ومن صنع الله.

وفى الفنون الإسلامية سيكون المكسب كبيراً. لأن هذه الفنون انبثقت فى منطقة الشرق القديم التى بدأت فيها الحضارة ونسجت خيوطها الأولى فى مصر وما بين النهرين.

وهى نفس المنطقة التى أعطت دفعة للعالم الغربى ليكتشف الحضارة ويصبح له فيها قولة عن طريق اليونان فالرومان.

وفى الوقت نفسه هى المنطقة التى نشأت فيها الديانات السماوية من الموسوية فالمسيحية فالإسلام. وهذه الديانات هى طرق فى الحياة وأنماط فى الإدراك تستهدف أن تغير كيان الإنسان على صور خاصة. فإذا تغير إدراك الإنسان لمعنى الحياة، تغير أسلوبه فيها، وبالتالى فلابد أن يتغير ما يصنعه.

من هنا تأتى أهمية وحدة الفكر والعقل والإدراك، فالإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل. ونحن نطبق هذا فى الفنون فنقول:

إن فنون البشرية الكبيرة تتغير أشكالها نتيجة تغير اتجاه فى الفكر نتيجة إيمان الناس بمعنى الحياة وبدورهم فيها، أثر على عملهم وبالتالى على فنهم ويمكن أن تفقد هذه الرؤية إذا انعكس الأمر؛ فلا يكفى أن أكون متديناً ـ فى أى دين ـ بأحسن ما فى هذا الدين أنتسب إليه، إذا كان سلوكى أو عملى لا صلة له بهذا الإيمان.

هذه هى النقطة الهامة التى حدت بنا أن تكون أحاديث العام الماضى حول موضوع فقه الحياة وفقه التشكيل لأننا لابد أن نتناول الجانبين: جانب الفعل والسلوك والعمل والصناعة.. وجانب الفكر و الرؤية والإيمان، فى الوقت نفسه.

وإنى لأظن أن عدم سعادة بعض كبار السن هو هذا السبب؛ أى أن هناك فارقًا بين ما يظنون أنهم يؤمنون به، وبين ما يقومون به من عمل فعلاً. لأن هذه الفرقة تتسبب فى تمزق نفسى من نتيجته أن تشعر النفس بضيق بحياتها. وهى لا تدرى أن السر الغائب هو أنها لم تحاول أن تصوب عملها ليطابق إيمانها.. والعمل هو أى عمل حتى المعاملة مع الناس عمل كأى عمل آخر.. والمعاملة مع الكائنات فى الكون عمل. وإذا لم تنسق كل الأعمال التى يقوم بها الإنسان مع إيمانه وإدراكه لمعنى الحياة فهو ـ بيده ـ يقوض أساس اطمئنانه.

من هنا تأتى أهمية الفنون الإسلامية :

فهى ظهرت من منبت عريق . .

وأنتجت إنتاجا على حيز واسع جدا من الأرض ولمدة طويلة من السنين . .

وأنجزت إنتاجا يكمل بعضه بعضا وإن كان يختلف فى كل مكان حسب الناس . . مع وجود الوحدة التى تعود آخر الأمر إلى وحدة الفكر الإسلامى .

وقلنا إن عملية المصادقة بين كيانين تتطلب معالجة نفسية حتى لا يمتنع التفاهم المنشود وينحبس أحدهما على نفسه ويرفض التواد ، الأمر الذى يمتنع فيه الأخذ والعطاء . ففى كثير من الأحيان لا يكون المدرس أو الأم على تفاهم حقيقى مع التلميذ أو مع الابن أو الابنة ؛ بمعنى أنه محبوس داخل نفسه لا يريد أن يتقرب من أولاده . . لا يريد أن ينفتح عليهم . . لا يريد وجود نوع من التواد بينه وبينهم . . لا يريد أن يغير كيانه حتى يقدر أن يستلهم منهم ويعطيهم ويلغى الفارق الذى يمنع التفاهم المنشود .

نفس القصة على الفنون .

لذلك نقول إنه إذا كانت هناك أصالة للفنون الإسلامية . . وإذا كانت هذه الأصالة مستقرة عند بعض الناس ، فقد يكون من أسباب هذا أن فكرة الناس عن الفن هزيلة . . أو لا تكون هزيلة بل كبيرة إلا أنها محدودة برؤية معينة . . بوجهة نظر معينة ؛ كأن يوجد فنان إسلامى كبير ، مُثُله إسلامية فلا يمكنه أن يفهم الفن الأوروبى مثلاً ، أو أن يوجد ناقد فنى من أساطين النقد ، ولكنه لا يمكنه تفهم الفن الصينى مثلاً أو الهندى أو الإسلامى أو البدائى أو حتى فنون الأطفال ، التى كانت لا تعتبرها البشرية فنّا حتى وقت قريب ، لأن المعلم أو الشخص الكبير لا يريد أن ينفتح قلبيا على الطفل ويتعاطف مع منطق تفكيره .

كذلك مع الفنون البدائية والزنجية فقد اعترف بها حديثا ليس فقط باعتبارها أعمالا فنية صالحة بل على أنها فنية ممتازة .

وكان هذا نتيجة أن الإنسان الحديث المتقدم أدرك أن البشرية لها من أنماط الوجود ما هو أكثر من النمط الذى تربى هو عليه ، ومن هنا بدأ يحاول أن يفهم الأنماط الأخرى ؛ فيفهم الطفل . . والإنسان البدائى . . والزنجى . . ويفهم الهندوكى . . والصينى . .

عملية ترويض النفس هذه، بمعنى أن تنفتح وتصطلح مع الغير، لابد لها من تغيير في النفس حتى يتم هذا التواصل ويسقط الفاصل بين الإنسان وبين الآخرين.

نفس الوضع مع معرفة الله؛ فكثير من الناس لا يعرفون الله لأن بينهم وبينه فاصلا. هم يعيشون داخل أفقهم الذاتي فقط فلم يقدرون على رؤية ما وراء ذلك.

ولكي يعرف الإنسان الله لا يكفيه أن يتكلم ويتفلسف إنما لابد له من التمعن ومحاولة رؤية الحواجز التي عليه أن يرفعها حتى يمكنه أن يرى الحق.

فالفنون الإسلامية، يوجد خلفها الإسلام. وكثير جدا من المسلمين مقتنعون ومكتفون بصورة الإسلام كما نُشِّئوا عليه، بينما إدراك معنى الإسلام ليس أمرا سهلا. كذلك كل دين آخر. وإني أحذر أن يتوهم الإنسان أنه يفهم وهو في الحقيقة لا يفهم إلا قليلاً.

ففي الفكر الإسلامي لابد أولاً أن أوجه لنفسي سؤالاً، هو:

هل أسلمت قلبًا حقًا؟ هل أدرك معنى لا إله إلا الله ليس بالقول فقط بل صدقًا وحقًا. بضميري وقلبي؟ هل ليس كمثله شيء فعلاً؟ وهل يخلق كل شيء بقدر؟ وأن هذا العالم الذي أمامي مخلوقًا عبثًا بل بحساب، وأن كل ما فيه يسبح له. وأن الناس جميعًا سواسية سواء أكانوا ذكوراً أم إناثًا، بيضًا أم سودًا أم صفراً أم حمراً. وأن أفضلهم عند الله أتقاهم.

كل هذه الأمور من السهل أن تقال ومن الصعب جداً أن تتحقق.

ومن هذا الوجدان الإسلامي انبثقت أصالة الفنون الإسلامية.

وسنتكلم اليوم عن أربعة مداخل لإدراك هذه الأصالة:

أولاً: لإدراك هذه الأصالة يجب ألا يكتفي الإنسان بأنه مولود مصري إنما عليه أن يدرك فعلاً ماذا يعني مصري؟

والمصريون الأوائل، ولو أنهم مشتركون معنا في الاسم، إلا أنهم عاشوا قبلنا بزمن طويل. فهم مختلفون في الزمان. وبيننا وبينهم سفر طويل في الفكر. صحيح أن أعمالهم موجودة.. ولكننا أولاد عصر آخر. ولكن يوجد بيننا وبينهم تفاهم يحتاج الأمر منا لرحلة كبيرة نحو الوجدان المصري القديم لكي نتعاطف

معهم ومع منجزاتهم . . وبمعنى آخر أن ندرك جذراً من جذورنا المعنوية أو التاريخية أو الثقافية .

ومن دراستنا السابقة للفنون المصرية القديمة ، أدركنا أن مصر فى ذلك الوقت كانت لديها ـ فى المحل الأول ـ رؤيتها للمبدأ الروحى . . كانوا قوماً مثلنا : مؤمنين وملتزمين بالمسالك إلى ذلك المبدأ الروحى الذى كان محور حياتهم .

ولكن كيف أمكننا إدراك إيمانهم؟ أدركناه حين حُلَّت الرموز الهيروغليفية وعرفنا النصوص . . إلا أنه ـ من قبل حل الرموز والنصوص ـ كان هناك وعى بشرى عالمى يدرك أن الشعب المصرى شعب متدين ؛ لأنهم وجدوا أن هؤلاء الناس كانوا يهتمون بالموت اهتماماً خاصاً ، ويضعون مع المتوفى أشياء كثيرة يمكن أن يستنتج منها أنهم لابد كانوا يؤمنون بحياة أخرى بعد الموت .

لأن عملهم كان يصدق هذا .

وشىء ثان يثبت إيمانهم . . هو الأعمال ذاتها ؛ إذ يمكننا أن نقول إن سيماهم على وجوههم ؛ فتماثيلهم تشعرك بوجود شىء من السكينة والهدوء . . ليس سكينة واستقرار الإنسان المكتفى بنفسه ، بل الإنسان الرشيد النبيه ، فالاطمئنان والاستقرار فى التماثيل المصرية اطمئنان واستقرار لايتاحان إلا للإنسان المؤمن .

وشىء ثالث يثبت إيمانهم أيضاً هو أن تلك الأعمال تشع قيما من نوعية معينة لا تتاح إلا لإنسان يكون ـ فعلاً ـ قد أدرك هذا المبدأ الروحى .

وهو لأنه رآه بقلبه أمكن أن ينبثق فى عمله . .

كل هذا دون أن نقرأ أى نص من النصوص . . بل إذا قرأنا النصوص قد تساعدنا فى ناحية وتناقضنا فى أخرى :

تساعدنا فيما كتب وصور عن ميزان القلب حيث تدعى الروح أنها لم تقترف إثماً ، إنما هى قد قامت بكل الفضائل التى يتطلبها السمت الإلهى الصحيح .

وتناقضنا فيما كتب عن تعدد الآلهة ؛ فإنه يكاد أن يكون لكل قرية إله ولكل محافظة أو مديرية إله . ويسود إله المحافظة الأقوى على الدولة كلها . . هنا تلزمنا وقفة :

اتفقنا أن هؤلاء المصريين القدامى كان لديهم إيمان، واضح فى عملهم . . واضح فى مقاييس عملهم . . وواضح فى اهتمامهم بعالم ما بعد الموت .

ثم نقف عند تعدد الآلهة ونريد أن نفهم .

ولكى نفهم لابد أن نتصادق معهم . . ولكى نتصادق مع الفكر الفرعونى لابد من إدخال عنصر الزمن :

فى الديانات الأولى للشعوب فى مطلع الحضارة يمر الإنسان بمرحلة . فيها تعدد الآلهة وإن كان يشعر ويدرك ببديهته أن هناك إلها أسمى ولكنه يترك هذا الإله الأسمى ويبحث عن إله أقل درجة يمكنه أن يتعامل معه . هذا فى تاريخ النفس البشرية .

فالزنوج مثلاً والهنود والصينيون ما زال بعضهم حتى اليوم فى مرحلة الديانة الوثنية . وإياكم أن تظنوا أنه لا يوجد لديهم إدراك لوجود ألوهية أسمى وأكبر . ولكن جانب التعدد موجود هناك .

كذلك علينا ألا نفهم كلمة آلهة بمعنى ـ أو بنفس درجة معنى ـ الله واحد .

أنا أشرح كيف نتصادق مع الحضارة المصرية القديمة حتى نصل للإسلام . .

إن عند الإنسان قصوراً ذاتياً بمعنى أنه يحب دائماً أن يظل على ما هو عليه . ولا يقدر كل إنسان على عملية مجاهدة الذات . وقد تكون هذه السمة ميزة بيولوجية مطلوبة حتى يستقر كيان الإنسان ومجتمعه ولا يهتزا بسهولة . . ولكن هناك الشهادات الإيجابية الأخرى التى تثبت أن الفكر المصرى القديم أمكنه أن يدرك المبدأ الروحى بدرجة ـ فى تقديرى ـ يعز على أى إنتاج بشرى آخر أن يصل إليها .

وأقول شيئاً مهما ـ على مسئوليتى أيضاً ـ هو أنه

فى الوقت الذى نسلم فيه أننا حين نقرأ

النصوص الهيروغليفية نجد تعدد آلهة ،

فإن أعمالهم الفنية ـ بصرف النظر عن أقوال كهانهم ـ

تشف ، وتشع ، وتنم عن إدراك موجود أسمى مطلق ،

فوق كل ما يمكن للعقل والخيال أن يصل له .

نريد أن نفهم أكثر. وأنا أتكلم من خبرتى الذاتية فى داخل النفس الفرعونية المؤمنة:

قلنا إن هؤلاء الناس كانوا ـ قطعًا ـ على هدى، فى ناحية من النواحى التى أشرنا إليها بالإيجابيات؛ من سلوكيات، وإيمان بالبعث، وميزان.. رغم التعدد الذى يتنافى مع ضميرنا.

ومن إيجابياتهم أيضا أن الإنسان كان يتأمل الكون من حوله بنوع من الحب؛ أى بمعنى الاستعداد للتنازل الذاتى فى سبيل الاندماج فى شىء آخر.. أن يكون بينه وبين الكون شغف بأن يدرك كنهه. الإنسان مولود بهذا الشغف ولكننا نحن الذين نقيم الحواجز بين أولادنا وبناتنا والطبيعة صنع الله.

فالمصريون كان لديهم هذا الشغف منذ البداية، وغموه ولم يعوقوه؛ فكان تأملهم للخلق الطبيعى، وإخلاصهم فى العمل، سببًا فى أن تنم نتائج هذا العمل عن القيم العظيمة من الجلال والجمال والكمال؛ أى أنه لم تكن هناك ظروف تعوق تأمل الفنان المصرى للطبيعة ـ فى صور المعبودات المختلفة ـ بشغف، بل إن ظروف البلاد من حيث الجو وظروف أخرى ساعدته على أن ينشرح صدره.. وأن يمارس التواصل مع الطبيعة الموجودة.

انشراح الصدر.. والإخلاص فى العمل.. والتواصل مع مجهودات الأجداد، ساعد على التركيز.. على التأمل.. وسبر غور هذا الظاهر.. فتنكشف ـ عن طريق عمله ـ مكنون الطبيعة؛ أى وجدت القداسة.. والجمال.. والجلال.. والرحمة.. واللطف.. والكثير من القيم.. وُجدت عن طريق الإدراك المباشر لما تشير إليه الأسماء الحسنى للذات العلية.. دون أن يكون للنصوص دخل، إنما طريق العمل والإخلاص فيه.

وللصينيين مثل يقول إذا سار الإنسان المستقيم فى الطريق المعوج يستقيم الطريق وإذا سار الإنسان المعوج فى الطريق المستقيم يعوج الطريق.

هذا كله يشرح ما أقوله من أهمية الوحدة بين القلب والقالب.. وبين الفكر والفعل.. وبين الإيمان والسلوك.

إن هذه الوحدة كانت سر نجاح المصريين فى عصورهم ـ وما زالت إلى الآن ـ

فقد كانت الرؤية التوحيدية موجودة كخلفية لدى المصرى القديم . . وإنا لندرك مبادئ هذه الديانة إذا تأملنا الآثار المصرية .

وأحب فى هذا المقام أن أذكر بآية من القرآن تقول **﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾** كإضافة جانبية لمن لم يدرس المصريات أو الفن المصرى، كهؤلاء الذين يعتبر إدراكهم للجانب الدينى عميقا جداً بفتوح من الله وبمجهود ذاتى . . الذين لديهم الاستعداد لتقبل كل صورة من صور العبادة باعتبارها على الطريق .

قلت إنك إذا أردت أن تتصادق مع الأشياء فلابد أن تغير من نفسك بحيث يمكنك أن تصطلح وأن توسع من أفق إدراكك . وابن عربى - هو قطب من أقطاب الصوفية المسلمين الكبار - ينجح ، دون أن يقوم بمثل الدراسة التى نقوم بها ، فى أن يرى تعدد الآلهة والأوثان على أساس أنها كانت ستائر توجد خلفها حقيقة أهم وأعمق من كل شىء .

ولإدراك الفترة المسيحية نذهب للمتحف القبطى حيث لا نجد شيئًا . من الفن المصرى القديم إنما نجد أثر الوثنية الإغريقية وهى على مشارف المسيحية ، والوثنية الهيلينستية التى كانت موجودة فى مصر قبل المسيحية . . ثم نلمس كيف تحول هذا إلى المسيحية :

لابد أن ندرك كيف العلاقة بين المصرى والهيلينستى والقبطى . .

ولابد أن ندرك أن هذا الشعب قَبِل أن يتطور بديانته من مفهوم العصور القديمة لمفهوم العصور المسيحية .

أنا أحاول شرح كيفية الدخول إلى قلب الفنون الإسلامية .

لقد أدركنا فى رحلتنا مع المصرى القديم أن فنونه كانت متأثرة بإيمانه رغم وجود آلهة ، كانت رموز بعضها تأخذ صور حيوانات أو آدميين أو يجمع بين الإنسان والحيوان من حيث الشكل ، ولكنها كلها كانت رموزا أمكن من خلالها أن تعطى إيحاء بالقيم التى قلنا عنها . ثم جاء اليونانيون ثم الرومان ووجدوا أن هنا فى مصر آلهة غير آلهتهم الذين تربوا ونشئوا عليها ، فحاولوا أن يوجدوا نوعا من الوحدة كأن تكون «هاتور» مثلاً هى «أفروديت» . . أى أنهم بدءوا يرون آلهتهم فى الآلهة المصرية . . المهم أنه وجدت ديانة هيلينستية إلى جانب الديانة القديمة كانت تحاول

أن توفق بين الرموز المصرية القديمة والرموز اليونانية . . وقد كانت ديانة فعلاً وثنية كلاسيكية هيلينستية لا أثر فيها للرؤية المصرية القديمة إنما هى رؤية غريبة عن البلد .

وحين بدأت تظهر الرؤية الجديدة . . الرؤية المسيحية المصرية بدأت تعتز بها البلاد وبدأ العمل يتغير - كما هو واضح فى المتحف القبطى - من الوثنية إلى المسيحية ؛ تغير التشكيل فبدأ يبتعد الاهتمام بظاهر الجسد . . بدأ يغيض ولا يفيض ، ويوجد مكانه شىء سميناه الهندسة المقدسة ، التى تبين فى قمتها فى صورة السيد المسيح وحوارييه ، وصورة العذراء وابنها .

عملية التغيير هذه والتى تشبه تغيير الدودة بعد دخولها الشرنقة وخروجها فراشة ، يمكننا أن نتتبعها فى الأعمال فى المتحف القبطى حيث الانتقال من الفن الهيلينستى للفن البيزنطى - وأقول شبه بيزنطى لأن مصر المسيحية أسهمت فى بناء الفن البيزنطى مع سوريا وأرمينيا وبعض بلاد أخرى فى الشرق - إضافة إلى الفن القبطى أى المسيحى المصرى . ويمكننا أن نتابع على الأعمال الحجرية والمنحوتات الهندسية والنباتية والتى تجمع بين النباتية والهندسية ونجد أنه - بالتدريج تختفى منها اللمسة الوثنية وتسيطر عليها روح الديانات السماوية التى هى أقرب إلى التجريد والتوحيد والسمو فى الإدراك نحو المطلق الذى ليس كمثله شىء - وهذا عن طريق أنماط العمل نفسه ، بحيث إننا نكاد نرى - رأى العين - الإنجاز الذى يمكن أن نعتبره بداية الفنون الإسلامية ، والذى تسلمته فعلاً ونمته مع عطاء بلاد أخرى ووجد الفن الإسلامى .

إذا تمكنت من القيام بهذه الرحلة - التى وصفتها بهذا الشكل - ومن معايشتها فقد حوَّرت داخل نفسك ونحتّ ممرًا على درجات بحيث يمكنك أن تصل .

أولا ، دخلت للمنشأة المصرية القديمة وإيمانهم الأول وكيف ارتفعوا به لمشارف التوحيد ، ومن الناحية السلوكية كيف وصلوا للقانون الخلقى العظيم «كأوزيريس» ورمزيته التى تضاهى شكلاً وموضوعًا مفهوم السيد المسيح من ناحية وسلطان معنى المحبة الذى أشرنا إليه . . ثم الانتقال إلى المسيحية . .

وبعد ذلك تأتى إلى هنا فى المتحف الإسلامى وتجد الفنون الإسلامية وقد انتهت إلى التجريد المشحون بالوعى الدينى .

ولا يعنى هذا التجريد أنه لا توجد صور ، بل هناك صور ولكنها لا تلعب دورًا أساسيًا أو الدور الأساسى أى ليست فى الصدارة ولا هى فى بؤر القداسة . .

هذا باب من الأبواب.

وهو أحد أبواب أربعة قلنا عنها إنها أربعة مداخل إلى معنى أصالة الفنون الإسلامية.

هذه الرحلة التى يبدو أنى أطلت فى شرحها شرحتها لنفسى فى أربعين عاما.. وليس فى نصف ساعة ويبدو أننا أطلنا الحديث.

هى تحتاج وقتًا طويلا حتى يمكن للإنسان أن يعالج نفسه:

فأنا اليوم أنظر لمصر المسيحية كجزء حقيقى من تاريخى وكيانى ووجودى حققته فى ذاتى.

وممن قبله مصر الفرعونية أيضًا كجزء حقيقى حققته فى كيانى.

وهذا هو معنى الثقافة المطالب به الإنسان: أن يروض ويعيد تشكيل كيانه النفسى لكى يتسع ويتسع بحيث يصبح داخله مضاهيًا للعالم، ما ظهر منه وما بطن، أى بالملأ الأعلى، وبالكون المشهود المعروف عن طريق العلوم والفنون والديانات والمدركات المختلفة. هذا هو الهدف من الثقافة مرئية من زاوية أصدقاء الفن والحياة.

ولا أدعى فضل هذا القول فقد قلت فيما سبق أنه تعريف «ابن سينا» للحكمة وهى بديل الثقافة لأن كلمة ثقافة لم تذكر فى القرآن ولا فى الإنجيل أو التوراة إنما هى كلمة حديثة نوعًا.

وأتمنى لو تتغير كلمة ثقافة إلى كلمة «الحكمة» لأن الحكمة لا يمكنها أن تبتلع ما تبتلعه الثقافة الآن.

ثانيًا:

المدخل الثانى أو الباب الثانى ـ لنكمل رحلتنا فى التعرف على، والتواصل مع، كنه وأعماق وقلب الفنون الإسلامية ـ هو أننا كأصدقاء فن وحياة قلنا إن الإنسان فى العالم المعاصر لا يمكنه أن يعيش بوعى غير عالمى.

ولكن هل أمكن للإنسان الواعى أن يعيش بوعى غير عالمى؟ نعم ولا.

لأنه حتى فى العصور السابقة للتاريخ ـ كما يقول علماء الأركيولوچى ـ كان هناك ـ دائمًا ـ اتصال بين أجزاء العالم بعضها والبعض الآخر على ندرة وجود الإنسان على سطح هذا الكوكب فى ذلك الوقت. كان هناك نوع من التواصل

بالقدر الذى تسمح به الظروف ـ طبعًا كلما تزيد هذه المواصلات يزيد هذا ـ التواصل حتى تحقق اليوم وأصبح لا عذر للإنسان ألا يكون عنده وعى عالمى. إنما السؤال هو هل وعى عالمى زائف أم أصيل؟

وحين نرى تاريخ العالم فى الزمان والمكان وما صنعه الإنسان نقول فى النهاية إن منجزات الإنسان الثقافية تنقسم لأربع شخصيات:

الشخصية الأولى: التى كنا نتكلم عنها وهى شخصية العالم القديم.. ويمكن أن يقوم بالرحلة التى قمنا بها قوم آخرون فى بلاد أخرى إسلامية لدراسة التطور الذى تم منذ القدم حتى وصولهم للإسلام ـ ولكننا نقوم بها هنا لأن الشواهد لدينا متاحة يمكننا أن نراها ونتتبعها.

شخصية إنسان العالم القديم الذى بدأ من العصور القديمة فى «ما بين النهرين» «ووادى النيل» وانتشر كما هو معروف فى التاريخ حتى جاءت المسيحية وجاء الإسلام.

الشخصية الثانية: وهى الشخصية الأوروبية والتى« أشرنا إليها فى بداية الحديث حين قلنا إنه كان لنشأة الحضارة عندنا دفعة للعالم الغربى فى أن ينهض ويبدأ فى عمل حضارته ويظهر فى بداية الحضارة الإغريقية التأثر بالحضارة المصرية حتى استقلت بكيانها الذاتى ونمت ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان ثم قامت الإمبراطورية الرومانية الكبيرة حتى جاءت المسيحية فالنهضة ثم العصر الحديث.

ولو أردنا أن ندرس هذا التاريخ بنفس الأسلوب لوجدنا عجبا. ولكنى سأمر بسرعة:

قلنا إنه فى البداية كان هناك ما يقربه من مصر هنا. ولكن حين بدأت تتضح الشخصية اليونانية المستقلة بدأ يظهر طابع مميز لهم، ما زال أثر منه ملازما للشخصية الأوروبية إلى اليوم حتى وهم فى أمريكا.. هو اكتفاء الإنسان بذاته وعزوفه عن الماوراء.

وهناك قول معروف «إنه لما بدأت الشخصية الإغريقية تتضج مع «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو» أنزلوا الفلسفة من السماء إلى الأرض». أى بدأ يسيطر على فكر الإنسان.. الاهتمام بالإنسان وبحياته على هذه الأرض. هذا الاكتفاء

بالإنسان سمى بالفلسفة الإنسانية التى أنتجت الفلسفات اليونانية العظيمة وفنون اليونان العظيمة. ولا نقلل من قيمتها لأنها جزء عزيز من تراث الإنسانية . .

كان سلاحهم الذهن . . يحبون الألعاب الرياضية والحمامات والحوار . فوُجد لديهم المنطق؛ ميزان الفكر . إلا أنهم لا يعملون بأيديهم . من هنا كانت حضارتهم حضارة ذهنية، الأمر الذى انعكس على فنونهم بحيث يصعب على الإنسان ـ الذى لم ينمُ بالقدر الكافى ـ أن يدرك أو يتعاطف مع جماليات الذهن وقدراته وما فيه من روائع . وأن يتعرف على العمارة أو الأوانى الإغريقية مثلاً .

كما أن من تربى ونشأ من الغربيين على الثقافتين الإغريقية والرومانية أو الأوروبية بوجه عام ليس من السهل عليه أن يدرك العمارة المصرية أوالفن المصرى إلا بعد جهد كبير ومجاهدة ذاتية ونفسية؛ وقد كنت أخيرا مع كاتب من أحسن كتاب الغرب فى كتاب له اسمه «أعمال الإنسان» "works of man" ولكنه من أضلّ الكتب من وجهتى النظر المصرية والإسلامية، فالمؤلف ـ وهو موهوب وممتاز ـ قد أساء فهم الفنون الإسلامية على حد سواء . . وهو معذور فى ذلك لأنه يحكم من أفق الذهن، وما يمكن للذهن أن ينتجه من فنون يكون هو المسيطر عليها، وبالتالى على الثقافة التى تعبر عنها تلك الفنون .

ومن هذه الناحية فإن الإناء اليونانى الجيد والعمارة اليونانية الممتازة هما خير دليل على ذلك، ففيهما تكامل الذهن بدرجة رائعة أكيدة .

ولكن هذه سمة الفن المصرى الإسلامى فهذان لابد لهما من مدخل آخر .

أرأيتم كيف أنه من الصعب أن تتفاهم البشرية اليوم مع بعضها البعض :

ومن النادر ـ أيضًا ـ أن تجد الشخص الذى يصطلح مع نفسه أو مع أقرب المقربين لماذا؟ لأن الدعوة للمحبة والتفاهم من السهل أن تقال ومن الصعب جدا أن تتحقق؛ لأنها تتطلب أن يغير الإنسان من نفسه لينشرح صدره، ويمكنه أن يتسع للآخرين . ولكنه إذا انغلق على نفسه، وجد بينه وبين الآخرين، ما بين الدول بعضها البعض .

فالفكر الإغريقى، أو الأوروبى، بدأ بسلطان الذهن . ولكى تتعاطف معه عليك أن تبحث عن ديانته . ستجد الآلهة الإغريقية أبعد ما تكون عن الحكمة التى قلنا عنها؛ لأن الفكر الإغريقى أدرك المقدس على شاكلة الإنسان . وهذه كانت ميزاته وحدوده فى الوقت نفسه .

وحين جاء الرومان بعد الإغريق، نزل الذهن من أفق الفلسفة إلى أفق الواقع. وأصبح النزوع إيجابيا : قوة ومال وقدرة على العالم بقدر ما كان متاحا فى تلك العصور. ووجد الفن الرومانى الذى أعتبره - شخصيا - فنا كريها؛ لأن ما يغفر للفن اليونانى أن فيه تكامل الذهن وأناقته. ولكن الفن الرومانى نزل بالذهن، واستمر مع الواقع والجسم ورغبات الإنسان التى تكاد أن تكون حيوانية. وقد وصلت القيم فيه إلى حضيض من الإدراك. وإذا وجدت فيه ميزة فهى الميزة الإدارية أو التكنولوجية. . وميزة الشجاعة والقوة العسكرية وما يناسب ذلك من أخلاق. . درجة من الفضائل نقيمها، ولكننا لا نضعها فى المحل الأعلى.

ثم انهارت الإمبراطورية الرومانية وجاءهم المدد من الشرق فى صورة الديانة المسيحية، التى لا تعتمد على الذهن بل على الضمير. وإذا ترك الأمر للذهن وحده لما وجد هذا الضمير، كما هو حادث اليوم. فنحن اليوم فى عصر رومانى ثان.

فى الرومانية الأولى، جاءها المدد من المسيحية، وأصبح الوعى بالمقدس فى المحل الأول، وبدأت الفلسفة الإنسانية تتنحى، كما هو واضح فى الفنون سواء كانت بيزنطية أو قوطية.

ثم بدأ عمل هؤلاء المسيحيين الأوروبيين يحن إلى نزعته الرومانية القديمة، فتنحت الديانة المسيحية وأصبحت ديانة صورية، بعد أن شعروا أن ما تقدمه لهم الكنيسة يصرفهم عن هذا العالم، وعن كل ما يمكنهم أن يتمتعوا به من نعيم فى هذه الحياة الدنيا. فرجعوا لأصلهم: للإغريق الرومانى، وللكلاسيكية القديمة. . وأوجدوا عصر النهضة الذى حاول أن يحيى الفلسفة الإنسانية دون أن يحررها من قيودها؛ أى وجد النقص فى النماذج بين الفكر والفعل. وهو أمر يتضح بصورة كبيرة وشكل واضح فى أعمال «مايكل أنجلو»؛ ففيه نزوع الإنسان الطيب ذى القلب المسيحى، مع عقل وحواس وعمل رومانى، وأقول رومانيا وليس إغريقيا : صوّر مايكل أنجلو الله يخلق آدم وحواء فى سقف كنيسة «السستان».

فإذا كنت مسلمًا. . ولم تحاول أن توسع إدراكك فستجد أن هذا الرجل وثنى، لأنه لا يصور الأنبياء فقط إنما يصور الله نفسه.

هنا تتضح مأساة «مايكل أنجلو» فى أعماله: ففيها القسوة والقوة والدراما الكبيرة، وفى الوقت نفسه فيها النزوع المسيحى.

ومـا أوجـد هذه الأزمة هى الفلسفـة الإنسـانيـة التى أعيـد إحيـاؤها فى عـصـر النهضة؛ لأن الفلسفة الإنسانية قيد. . والديانة المسيحية من وراء هذا القيد. ولم يكن من الممكن الجمع بين الاثنين.

وبالتدريج بدأت تدرك النهضـة أن اقتصار الإنسان على نفسه دون المقدس عملية فاشلة وقضية خاسرة.

وما زال العـالم الغربى، والشخصية الغربية فى دوامة الأزمة؛ بدأ فنانو عصر النهضة يستوحون الفنين الإغريقى والرومانى والأسطورتين الإغريقية والرومانية ويخلقون أشكالاً تمت بشكل أو بآخر إليها، وتنظر إلى الجسم البشرى، وترى فيه صورة مثالية على النهج الكلاسى المعروف.

ثم اختفى هذا منذ حوالى خمسين عاما. . لماذا؟ لأن جذور الرؤية غاضت. والفلسفة الإنسانية نفسها أصبحت غير موجودة راحت. وراحت معها المسيحية أيضًا؛ المسيحية الحقة

أى أن العالم الغربى خسر نفسه

لأنه خسر الفلسفة الإنسانية.

وخسر مسيحيته.

إن سبب الأزمة الموجودة فيها الحياة الأوروبية والأمريكية والروسية المعاصرة فى الفن وفى الثقـافة، وفى السياسة وفى الاقتصاد، فشل أسـاس كنه الحياة. . فقه الحياة. . معناها. . المكنون الأصلى لها. فجاء الفن الحديث وكل فنان فيه مشغول بنفسـه، يبحث عن التعـبير عن ذاته، فبدأت توجد الفنون الفردية المحكومة بالأهواء.

وقـد سـاعـد هذا الموقف الأوروبى، العـالم المعاصر، على أن يبحث عن الفن الإسلامى، لأن هناك كثيرين اليوم فى أوروبا يبحثون مرة أخرى عن المعنى أو عن الروح. . يبحثون عنها فى الإسلام. . أو فى الهند. . أوفى الصين. . أو فى اليابان أو فى المسيحية.

وفى الوقت نفسه فإن الفنون الحديثة ـ كما تعلمون ـ قد تنازلت عن فكرة التشبيه بمعنى أن ترسم الإنسان أو الحيوان شبيها لما هو مرئى بالعين، بل أصبحت الرسوم

تجريدية، أى بعيدة عن عالم المرئيات، الأمر الذى جعل الفن الإسلامى مقبولا من ناحية التجريد، ومن ناحية البحث عن المعنى أو الروح.

هذا مدخل ثان.

ثالثا:

المدخل الثالث يتعرض للشخصيات الثقافية الأربعة التى تكلمنا عنها:

الشخصية الأوروبية.. وشخصية العالم القديم.. والشخصية الهندية.. والشخصية الصينية.

فإذا قارنا الشخصية الأوروبية بباقى الشخصيات لوجدنا أن للهند الدينين الهندوكى والبوذى.. وللصين البوذى والكنفوشى والتاوى، بينما الشخصية الأوروبية تتأرجح بين الناحية القدسية، نعم أو لا.

ومن الناحية الإنسانية نعم. أو لا. ويبدو أنها لم تجد معناها أو حياتها أو شيئا نستقر عليه. بينما الشخصيات الأخرى تؤمن بالجانب القدسى، وأن كانوا اليوم متخلفين نسبيًا ما فى ذلك شك؛ لأن إدراكهم للذهن وللتجربة العلمية ـ التى أعطت الشخصية الأوروبية عمادها من القوة والمال، والمال هنا بمعنى ما للإنسان بعامة ـ غير مؤكد ومهمل وقد أصبحت الديانة وكأنها زهرة جفت أو ينبوع غاض. ولكن تراثهم ما زال عامراً بالمفاهيم والخيرات المعنوية.. ويوجد فرق بين الإسلام والشخصيات الغربية والهندية والصينية، فبينما تجد الصور والتماثيل تذخر بها المعابد الهندية والصينية والكنائس الغربية لأن الصورمسموح بها ومقبولة كوسيلة من وسائل التعبير ـ فإن فى الفكر الإسلامى تضيق النفس بالصورة.

وهنا أريد أن أصحح نقطة: فإن الفكر الإسلامى لا يحرم الصورة، إنما يضيق بها، كما ضقنا «بمايكل أنجلو» وهو يصور الله وهو يخلق آدم وحواء، فالإنسان لا يقبل هذا. الله الذى ليس كمثله شيء لا يقبل المنطق تشبيهه. هنا يوجد عدم قبول للصورة لأنه فى الإسلام أصبحت النقطة الأساسية للتركيز عليها هى ما يعجز عنه الإدراك، وليس التشبيه. لذلك اتجه الإسلام إلى الجانب التجريدى لأقصى درجاته.

وهذا هو مدخل ثالث.

رابعاً:

أما المدخل الرابع والأخير فهو أن إنسان اليوم أدرك معنى الفن ذهنيا ويتكلم عنه أكثر مما تكلم الإنسان عن الفن فى أى عصر آخر، أو أى بلد سواء كانت الصين أو الهند أو عند المسلمين الذين صنعوا هذه الفنون العظيمة ولم تكن عندهم كتب فى الفن. ولو بحثنا مثلاً عن أى مرجع فى العمارة الإسلامية التى امتدت من الصين إلى الأندلس فلن نجد إلا أقل القليل. كذلك نحن اليوم فى الفن.

نحن نهتم بالفن على مستوى الثقافة لأن الفن فى أزمة كبيرة.

ونهتم بالثقافة لأن الثقافة فى أزمة كبيرة.

وأصبح الأمر كله مشكلا يحتاج إلى كل هذا الاهتمام والمراجع والكتب.

ولكن..

كل هذا لا يكفى..

ولا مائة كتاب ومائة متحف للفن الإسلامى يمكنها أن تقربك من الفن الإسلامى وكذلك من الصينى أو من الهندى. إلخ إلا بالمجاهدة التى تجعلك تحاول أن تدخل الجلد الصينى لتفهم الفن الصينى. أو تدخل الجلد الزنجى لتفهم الفن الزنجى أو لمعنى جوهر الإسلام لتفهم الفن الإسلامى.

وأهمية أن تتمثل رؤى هؤلاء الناس فى كيانك ليس على أساس أن تحكم عليهم أو لهم، بل من أجل أن تدرك فردانيتهم.. ومعنى وجودهم؛ لأن معنى وجودهم هم حققوه فى أعمالهم.

فإذا أمكنك هذا فستكتشف أن أيا من الذين يعملون ويتقنون عملهم يعملون بقوانين خاصة وبلغة خاصة.

فإذا وجدت نفسك بين النجارين أو الحدادين أو الكهربائيين لوجدت أن لكل منهم اصطلاحات ومفاهيم لا تدركها ما لم تكن واحداً منهم.

وفى الخلاف الحادث اليوم فى الشعر بين الشعراء المتمسكين بالعموى والخارجين عليه، تجد أن للشعر أوزانًا، وفى هذه الأوزان المقاسات الموسيقية للشعر، وهى مختلفة عند كل من الطرفين. والفرق بين موسيقانا الشرقية والموسيقات الأجنبية أن التقنية ومفاهيم النقد مختلفة، فلكى تفهم الموسيقا الشرقية لابد أن تفهم شيئًا عن مكتونها ونوعية نقدها، وكذلك الموسيقات الأخرى.

فهل معنى ذلك أنه يمكننا أن نفهم شيئًا عن نظرية النقد، ونظرية الفن الإسلامى؟

نعم فعند الخطاطين يوجد بقايا من هذا.. كما فى كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندى، وإذا سألنا أى أستاذ من أساتذة الخط الكبار لوجدناه مدركًا لقواعد الخط ومقاساته، ونسبه، وفلسفاته، إذا كان واعيًا.

وصورة من صور فلسفة الفن الإسلامى بعامة، موجودة فى رسائل إخوان الصفا، حيث يتكلمون عن الأساس الرياضى الهندسى الحسابى للخليقة بعامة، وللخلق الإنسانى إذا أراد أن يستقيم مع القانون الطبيعى. صنع الله الذى أتقن كل شىء.

٤ ـ أصل الفنون الإسلامية

اهتمامنا بالفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها يرجع لاعتبارها من الأساسيات بالنسبة لنا، لأنها منبثقة من العقيدة الإسلامية. وهذا البلد إسلامى. وهذا الفن الذى خرجنا منه إلى التبعية؛ أى أننا كنا من المشاركين فى تلك الفنون ومن العطائين فيها.. ثم.. لا أريد أن أقول خرجنا إلى رحاب بل إلى سجن التبعية الثقافية. وبهذا نعتبر هذه الفنون منطلقا أساسيا.

فإذا كنا ـ فعلا ـ نريد أن نعرف أنفسنا جيدا فلابد أن نرجع لماضى حياتنا، فإنى إذا أردت أن أعرف شخصًا ما فعلىّ أن أطلع على حياته الماضية: تجاربه.. تصرفاته.. مشاعره.. مواقفه.. هذا الاطلاع يبصرنى بأمره.

كذلك إذا أراد الإنسان أن يعرف نفسه فبإمكانه أن يتعرف على ماضيه، وإذا كان لديه شىء من رحابة الصدر بحيث يمكنه أن يتقبل سلبياته بجوار إيجابياته فإنه بذلك يمكنه أن يفهم نفسه جيدًا وبالتالى يحسن سياستها نحو الغاية التى يتغياها.

ما أهمية أن نعرف أنفسنا؟

وما أهمية أن نتخلص من الأسر الثقافى؟

حين قلت سجن الأسر يعنى أنى لا أقبل ولا أوافق على ذلك الأسر. ولكن

هناك أسرا يقبله الإنسان؛ كأن يأسرني موضوعي الفني مثلاً، أوالموضوع الثقافي. حينئذ أكون سعيدا بهذا الأسر، ولا أملك لنفسي فكاكا منه فهو أسر مختار.

وفي مجتمع عظيم - في تقديري - كالمجتمع المصري - وهو عظيم لأن تاريخه الطويل به شواهد كثيرة على أنه أنجز وحقق الكثير من الأعمال الممتازة - أقول حين يوجد شعب مثل هذا الشعب له هذا الماضي الكبير وأنجز تلك الإنجازات العظيمة. ثم وقع تحت الأسر فمن الطبيعي أن يهب هذا الشعب لكي يجاهد أو يتطلع لأن يجاهد ليتخلص من الأسر بمعنى أن يأخذ حريته؛ كتحرير سيناء الذي نعيش أعياده وهو في مخزون ذاكرته دائما.

لقد استجاب الجميع لتحرير سيناء - طبعا - لأن الكل يفهم أهمية تحرير الأرض من احتلال أجنبي. لكن قليلين من يدركون أهمية التحرر من الأسر الثقافي؛ وكثيرون لا يعون أنهم ليسوا أحرارا ثقافيا.

ولكن ما هي الحرية؟ والكل مستعد أن يهتف للحرية دون أن يعني معناها الحقيقي؟

نحن نعرّف الحرية بأنها خلاقية متمركزة في ذات متكاملة أي غير متضاربة بعضها مع بعض، بل تكمل بعضها البعض.

وعرفنا - من قبل - الشخصية بأنها وعي خلاق للقيمة.

فالذات الحرة هي وعي متكامل وخلاق للقيمة.

فأنت كفنان، تكون لك شخصية، إذا تكاملت كل اتجاهاتك وكل النواحي في كيانك كفنان مع بعضها البعض، ولا تقتصر على الجمع من هنا ومن هناك، بل تعمل بمهاراتك وإمكانياتك وتحقق قيمة معينة، وتوجد لديك القدرة على الخلاقية المتجددة. وحينئذ فقط تعتبر فنانًا حرًا؛ فليس كل من يقول أنا حر يكون حرًا لأن الحرية تتطلب أن يكون للإنسان شخصية، أي ذات متكاملة تمارس الخلاقية من أفقها.

والحرية رحلة لا آخر لها.. مستمرة.. كلما يصل الإنسان إلى أفق يتكشف أمامه أفق أعلى وأبعد وأوسع.

فإذا أردنا لبلدنا الحرية فعليها أن تمارس شيئين:

أولاً: أن تكون لديها خلاقية متمركزة فى ذات. والذات هنا تعنى الشخصية المصرية المتكاملة غير التابعة.

ثانيًا: من هنا يأتى اهتمامنا بإعادة بناء الشخصية عن طريق التربية وكنا نقول بوجوب أن نحول التربية إلى تربية فى الخلاقية بدل التربية فى الذاكرة وأن تكون فى ذات الوقت تربية فى العمل الذى يشع قيمة.

منطقنا واضح وكذلك سعينا. وواضح كيف يتكاملان ويسيران ـ على مدى العمر الطويل ونحن نفكر سويًا ـ فى كل كلمة وكل رأى من الآراء. الكل له هدف واحد: هو أن يمارس الكل كيانه البشرى كإنسان، لأن الإنسان بين سائر المخلوقات الأخرى هو الذى أعطاه الله فرصة وإمكانية أن يشكل حياته. فإما أن يشكلها على أساس رفيع أو يشكلها على أساس وضيع.. يشكلها على أساس حر أو على أساس تابع، فالتبعية تأتى من انحلال الشخصية أو ضعفها أو فتورها عن ممارسة حقها فى الخلاقية، بينما الخلاقية حق ولادة طالما ولد الإنسان إنسانا.

ونفس القصة كما هى فيما يختص بالفرد، هى فيما يختص بالمجتمع: فإذا أردنا لمجتمعنا المصرى الأصيل أن يتحرر ثقافيًا، فلابد أن يعاد بناؤه بشكل أصيل ومعاصر ومتكامل، وأن يمارس خلاقيته من مركز هذا الكيان المتكامل الأصيل. فالغزو يأتى من كل مكان إذا لم يكن الوعى متنبهًا وصاحيًا ولديه القدرة أن يجد مخرجًا ومنفذًا من كل مأزق عن طريق ممارسته لحيويته، وقدرته على أن يوجد ويخلق الفجر الجديد وسط الظلمة؛ أى أن يخلق حل المشكل مهما كان المشكل محيطًا به. وأن يعرف أن البناء فى هذه العملية، فى داخل نفوس الناس، وأن البناء يكون أكمل وأفعل كلما بدأنا منذ البداية، أى من الطفل، فالطفل هو الأساس الذى يبنى عليه المجتمع السليم.

والحرية تدخل جميع النواحى فى الصناعة وفى الزراعة والاجتماع وحتى فى المحادثة العادية وليس فقط فى الثقافة أو التعليم أو السياسة ـ فلكى تساعد الإنسان على التفكير الحر احترم سمعه واحترم فكره، وحاول أن تتلمس له طريق الإقناع عن طريق أن تكون أنت نفسك مقتنعا، وأن يتمشى كلامك مع منطق الواقع ويتمشى مع الفكر الصحيح..

إن ما أريد أن أقوله هو أن منافذ الغزو والتبعية والأسر موجودة فى كل مكان فى الحياه بعامة وفى سلوك الناس بعضها مع البعض، والكل مسئول، لأنه إما يبنى أو

يهدم. وقليل من الناس من يدرك هذا، ويكون لديه الوعى بالمسئولية، فلا يقتصر على نقد الغير بينما هو نفسه لا يعى، لأن أحداً لا يسائله.. بينما الحر رقيبه.. ضميره.. رقيبه على ما يقوله وما يفكر فيه وما يعمله.

من هنا، فإن اهتمامنا بالفنون الإسلامية نابع من اهتمامنا بشكل بلدنا؛ لأننا نريدها حرة مرة أخرى؛ تضيف الجديد إلى جانب ما أضافته من قبل لنا وللعالم كله، وإنه لكى يتم هذا لابد من أن نعرف تاريخها جيداً. وأقرب هذا التاريخ لنا هو التاريخ الإسلامى وما زالنا مسلمين وعلينا إذا كنا نريد أن نكون أحراراً بالفعل لا بالقول أن نعمق مفهومنا ونمتحن أفكارنا فيما يختص ليس فقط بمعنى الحرية بل بمعنى الفن ومعنى الإسلام.

وإنى أعتبر أن الفنان ليس هو من يقيم العمائر أو يعمل الإناء أو يرسم الصورة أو ينحت التمثال فقط بل إنه الإنسان؛ أى أن كل إنسان إذا مارس إنسانيته، أى خلاقيته، وأصبحت له شخصية، وكان عمله حراً، فإن هذا العمل يصبح فنّاً، ويصبح هو فنانا. فليس هو التشكيل فقط، بل هذا مجرد جانب واحد من الفن الكبير فن الحياة. لذلك نسمى أنفسنا أصدقاء الفن والحياة، لأن هدفنا هو أن يدرك الناس أنه لابد للحياة أن تصبح فنّاً ولابد للفن أن يكون حياة. وهذه المفاهيم نحاول أن نمحصها فى كل مرة حتى نكون صادقين. ونرجو ممن يوافقنا ألا تكون موافقته مجرد موافقة آلية أو موافقة غير مدعومة بالخبرة الذاتية والتمحيص الذاتى لنكون مجتمع أحرار وليس مجتمع قطيع.

والأصالة فى الفنون وفى الحياة كلها منبعها وجهة نظر جديدة فى الحياة. وكما قال ابن سينا: إن الحكمة هى «أن تكون داخلك مضاهيا للكون الطبيعى والكون المعنوى للبشرية كلها». ولكنك إذا توقفت عند هذا المفهوم فقط فأنت كدائرة معارف أو دار كتب أو متحف.. إنما لابد أن يتفاعل كل هذا فى نفسك وتولد وجهة نظر جديدة ـ وجديدة هنا بمعنى اجتهاد ـ وميلاد وجهة النظر الجديدة يأتى من إحسان إدراك كيفية خلق الجديد الذى لا يخلق من فراغ بل من صدق فى الحياة أى صدق فى الخبرة وصدق فى العمل. وإنى لأكرر حديثاً طالما قلته هو «إذا عمل الإنسان بما يعلم أورثه الله علم ما لم يكن يعلم». أى لابد من وجود فكر ممحص وعمل صادق ليضمنا لك بابا جديداً فى اجتهادك لكى يعطيك الله من فتوحه ما لم تكن تعلم ولا كانت الناس تعلمه من قبلك.

فالمفهوم الأساسى للأصالة كما قلنا هو وجهة النظر الجديدة هذه. وإذا نظرنا فى تاريخ البشرية فإننا نجد أن كل عصر جديد كان نتيجة لوجهة نظر جديدة؛ فالنهضة كان لها وجهة نظر تختلف عن القرون الوسطى والقرون الوسطى جاءت نتيجة وجهة نظر جديدة عن الإمبراطورية الرومانية التى جاءها فكر جديد من المسيحية.

كذلك فإن وجهة النظر التى جاء بها الإسلام جددت العرب وخلقت اسما لهم. وأقامت دولة إسلامية كبرى على المستوى العالمى.

ولقد ظن كثير من الناس أن ليس للفنون الإسلامية أصالة لاعتمادها على فنون عالم ما قبل الإسلام كلها، بينما كان عند المسلمين الإدراك السليم ليتعلموا كل ما لا يعرفون. وانشرح صدرهم لقبول العلوم والفنون من كل الجهات، إلا ما يتضارب مع المبادئ الأساسية للدين.

ولكنهم لو كانوا قد اقتصروا على ذلك ما حققوا شيئًا، ولكنهم انفتحوا على كل البلاد ليتعلموا، وفى الوقت نفسه مارسوا خلاقيتهم وعطاءهم ومن هنا وجدت الشخصية الإسلامية.

وماذا يعنى الإسلام؟!

أهو تكامل الشخصية فحسب! إن كل الديانات الكبيرة تتطلب من الإنسان أن تتكامل شخصيته أى أن يحصل صلح بينه وبين نفسه، وأن يتوحد كيانًا، وتصبح له شخصية، حينئذ فهو، على عتبة الإسلام أو المسيحية أو أى ديانة أخرى.

أهو إسلام الوجه لله! وكيف أسلم وجهى لله بالفعل ولى ستون وجهًا! كيف أتجه للواحد وأسلم له قبل أن أجمع كل هذه الأوجه فى وجه واحد، ثم يتجه هذا الواحد للواحد الأحد، لله. . والله هو الذروة الكبرى للقيمة؛ فإذا وصلت كل قيمة لدرجة الإطلاق فالله من وراء ذلك أعلى وأكبر.

لذلك فإن كلمة «الله أكبر»

تعبر عن صميم معنى الإسلام

ليس إذن مجرد إسلام الوجه لله بالقول، بل هو مع تكامل الشخصية البشرية، وسعيها نحو ذلك الواحد فى كل ما تعمل وتصنع وما يصدر عنها، حيث تعى أن هناك ما هو أكبر من كل شىء وأن أمانها واستقرارها وطمأنينتها فى أن تتجه نحوه.

وإنه لن يكون إسلامًا حقيقيا إلا إذا صدّق العمل الفكر. الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

الإسلام هو فن الحياة

المتكاملة والحرة بتوجيه الله.

وفن الحياة هو فن الفنون.

أنا لا أتكلم عن الفن الإسلامى إنما عن الإسلام باعتباره هو نفسه فنا، بل هو فن الحياة المتكاملة والحرة بتوجيه الله ليست حرة تفعل ما تشاء هى، بل بمشيئة الله وهدايته.

حكيت مرة أو مرات سابقة عن وجودى فى الخارج فى الثلاثينيات وشعورى حينئذ أنى فى حاجة أن أجدد إسلامى.

أردت أن أفهم ماذا يعنى الإسلام. فدخلت فى مسالك ودروب متعددة.. ووجدت أنه صحيح أننا علّمنا أن الإسلام يقوم على خمس هى الشهادتان، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج إن أستطعت إليه سبيلا. ولكنى كنت أفكر بعقلية شاب يريد أن يحقق حياته ويعيش فى الخارج وسط عالم يعنى قليلون فيه بمعنى الديانة حقيقة ويكاد الباقون أن يكونوا قد تركوا الدين وراء ظهورهم إلا شكلاً.

وشعرت ـ شخصيا ـ أن الديانة أمر ضرورى.

لأنى كنت أبحث فى تاريخ الفن، وفى تاريخ الفن فرصة أن تتعرف على حضارات البشرية كلها.. بينما لو أنك تدرس الموسيقى فقط فإن المتبقى من موسيقى البشرية قليل.. وفى الآداب تجد حجاب اللغة بينك وبين الآداب العالمية، والمترجمات محددة.. لكن الباب مفتوح فى الفنون التشكيلية، فوجدتنى أنظر وأفكر من أول الإنسان فى العصر الحجرى القديم حتى اليوم.. كانت الفنون التشكيلية مدخلاً لى لأن يتسع وعيى عالميًا.

ووجدت أن كل فن يهز الإنسان

حقيقة ويحركه من الأعماق

وراء رؤية فى الحياة. ومعظم

هذه الرؤى رؤى دينية.

هذا أولاً . .

فالصين والهند والزنوج ومصر والإسلام كل هؤلاء يحكم ويغذى فنونهم رؤية دينية.

فإذا تأملنا فنون النهضة نجد خلفها رؤية فلسفية . . والإغريق أيضا، أساس رؤيتهم فلسفية.

أى أنى كنت أهتم بالدين وبالفلسفة.

ولكن بعد فترة تأمل وجدت أ الفلسفة تأخذ جزءا من الإنسان - فى تقديرى - هو العقل بمعنى الذهن وتنشغل به . . ولكنى إنسان، وفنان، والوجدان عندى أساسى . . والبصيرة عندى أساسية . . عمل البصيرة من الناحية الذهنية مستتر ولكنها من الناحية الفنية الوجدانية مكشوفة . والوجدان والبصيرة لهما دخل أيضا فى العلوم.

إلا أن دوريهما الرئيسيين الكبيرين هما فى الناحية الدينية.

ثم وجدت أن الفلسفات فى مجموعها لا تشبع بالقدر الذى يشبع به الجانب الدينى - أنا أتكلم الآن عن الجانب الدينى والجانب الفلسفى كما هما يتجليان فى الإنتاج الفنى - فوجدتنى منجذبا بشكل غير معقول لإنتاج الهند . . والصين . . ومصر . . ولإنتاج الفن المسيحى سواء كان بيزنطيا أو قوطيا، ثم للإنتاج الإسلامى . وبدأت أشعر أن هناك نوعا من الوحدة يربط بين هذه الفنون الدينية رغم اختلاف صور عقائدها.

وأردت أن أبحث عما يربط هذه الفنون - التى انجذبت إليها تلقائيا - بعضها بالبعض الآخر رغم أنها آتية من مصادر متعددة من ناحيتى الزمان والمكان . . ومن ناحية العقائد، فبدأت أتعمق أكثر فأكثر فوجدت أن هذه الفنون - على خلاف الشائع - لها مقولات، أى ليس الشكل وحده، ولا عناصر التشكيل الأساسية المجردة وحدها إنما هى تحوى شيئا أكثر من مجرد جمال التشكيل . . شيئا يجمع بين هذا الشتيت المتنوع.

ثم بدأت أحس أن هذا الشىء نفسه موجود فى الطبيعة . أى أنى حين أتأمل الطبيعة . . وأشير هنا إلى نقطة هامة هى أن أى معرفة حقيقية لأى فن من الفنون تؤثر على الرؤية للحياة وللطبيعة . . فحين أتأمل الطبيعة وقمم الأعمال الفنية

الرائعة التى أشرت إليها ألمح وحدة تتجاوب أصداؤها . . تأتى من الطبيعة حين ترى رؤية مدعومة بخبرات البشرية السابقة كما هى متمثلة فى الفنون والأعمال الفنية رغم أن صور الطبيعة مختلفة . لكن الطبيعة كلها تقول مقولة واحدة . . .

هذه المقولة الواحدة التى تقولها الطبيعة

متفقة مع العامل المشترك الذى يربط

الأعمال الفنية من قمم البشرية عبر

العصور التى أشرنا إليها .

وارتحت لهذه المقولة وشعرت كما لو كنت تائها ووجدت بيتى . .

إذ بدأت أدرك أن هناك شيئا يربط قمم البشرية العظيمة بالإنجاز الطبيعى وأن هذا الشىء موجود فى ضميرى . . بل هو سر وجودى . . أساس وجودى . . ضالة نفسى التى كنت أبحث عنها . .

حينئذ بدأت أفهم معنى الإسلام . ومعنى أن الإسلام دين الفطرة والفطرة تعنى الطبيعة . . فأساس دين الفطرة البشرية هو الإسلام بمعنى إدراك الوحدة الرابضة خلف الكل والتى تفوق الكل .

وأنى إذا اهتديت لهذه الوحدة فى نفسى

وفى الأشياء الأخرى وأدركت الترابط بينها ،

فإنى أحقق ذاتى وأحقق وجودى .

وإذا أدركتها فى الآخرين تبتدئ توجد

الصلة الصحيحة بينى وبينهم والتى

نسميها المحبة .

فسر المحبة الأساسى أنى أدرك أنى أنا والشخص الثانى ـ فى الصميم ـ فى رباط رائع وعميق هو سر كيانه وكيانى ، حينئذ يسقط جدار الكراهية والبغضاء . قد أرى أنه أخطأ ، نعم ، ولكنى لا أكرهه . . بل أدين العمل الخطأ ، وأحاول أن أبين

الوشائج التى بينى وبينه، فإذا وضحت له قد يهديه الله فيدرك خطأ عمله دون أن يتلوث قلبى بالكراهية.

طبعا هذه الموضوعات التى نتكلم فيها ليست موضوعات إخبارية إنما هى مسائل خبرة ينمو فيها الإنسان.. وجوهرها أن تدرك أنك أنت لست مجرد جسد ولا أنت الفكر أيضا، على أهميته، فالاثنان من الوسائل. إنما غايتى الأساسية الحقيقية هى روحى التى هى من أمر الله. هذا الذى فى داخلى وجدته أنا فى الطبيعة وفى أعمال البشرية العظيمة عبر العصور رغم اختلاف عقائدها.

المهم بعد ذلك أن نعرف أن الإسلام الحقيقى هو إدراك أنك أنت كإنسان حياتك لا تصح إلا إذا اجتمعت نفسك كما يقول الشاعر المتصوف:

كانت لنفسى أهواء مفرقة　　فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

الإسلام الحقيقى هو أن تدرك النفس حقيقتها. وحقيقتها فى ذلك الكيان الداخلى الذى يقدر حين يتأمل الطبيعة بعمق - أن يحس أنه موجود فى صورها رغم اختلافها.. ولو تأمل فنون البشرية للديانات الكبيرة لوجد فيها - فى الصميم - نفس الحقيقة.

حين يقوم الإنسان بهذه الرحلة - والمفروض أن يقوم بها كل إنسان بطريقته المتاحة نحاول عن طريق التربية أن نساعده ونساعد الآخرين بأن ننبههم من الغفلة؛ لكى يبحث الإنسان عن نفسه ويحقق حريته التى يريدها والتى تتأتى إذا اجتمعت أهواؤه.. وتكاملت شخصيته.. ورأى الحقيقة الكبرى وأسلم وجهه إليها وعمل وفقا لإملائها..

أما التوجيه فموجود فى كل الديانات: فى نصيحة الجبل فى المسيحية، وفى آيات الهداية فى القرآن، واعترافات الروح فى الفرعونية التى يوجد بها بذور الهدايتين القرآنية والمسيحية..

وموجود فى توجيهات معلمى البشرية الكبار من الهندوكية أو البوذية أو الكنفوشية أو التاوية أو مقولات الصوفية.

وسنجد أن التوجيه يسير فى الاتجاه نفسه، بل يكاد أن يكون نفس التوجيه الذى يسميه البعض الحب أو البر وأفضل تسميته بالبناء: ابن ولا تهدم.. ساعد ولا

تعطل . . كن نورا ولا تنشر الظلام . . مارس خلاقيتك فى صالح المجموع . . جرد نفسك من قيودها وآمالها الصغيرة . . هب نفسك وأعطها لعمل كبير يساعد الكل . .

كل هذه التوجيهات هى توجيهات الحقيقة الكبرى . . الله الأكبر من كل شىء قد تختلف الأسماء ولكن الجوهر واحد، ولأنه فى الفنون التشكيلية لا نقف عند الكلام والألفاظ فإننا نراها بالوجدان وبالقلب .

إن عظمة الرؤية الإسلامية أن الله فيها ليس كمثله شىء . . ولا يقبل أى تصوير لهذه الحقيقة الكبرى . . الفن الدينى يمكنه أن ينبه ويحرك الوعى بوجودها . . الفن الدينى يركب فيك الخبرة الدينية . وفى الفكر الإسلامى لابد أن يكون هذا الواحد مجردا من الصورة منزها عن الصورة . . ليس كمثله شىء . وإذا أردت أن تدرك شيئا من أشيائه المتعددة فعليك بأسماء الله الحسنى التى يمكن أن نصنفها إلى ثلاثة هى الجمال والجلال والكمال . وأى من هذه الأسماء تقربك من معنى الإسلام قدر قدرك،

قلنا نقطتين مع بعضهما الآن :

الفن الدينى بعامة الذى يعى بذلك الوجود المقدس الأسمى الأكبر الأعلى الأمجد الأروع الأجل الأكمل .

والفن الدينى الإسلامى وهو الذى يتبع الرؤية الإسلامية التى تحاول أن تنفى هذه الرؤية للوجود المقدس من أى شبهة صورة . . فهى قد وجدت عجز الصورة . . وعدم كفايتها .

والفن الإسلامى فن دينى رغم أن البعض يؤكد أنه ليس دينيا لأنه لا يتصدى لشرح المقولات الدينية ولا القصص الدينى . . ولكنه فى الحقيقة فن دينى يحاول أن يحقق روح الإسلام . وروح الإسلام حقيقة لا تجد كفاية فى الصورة لذا تكف عنها . . ولكننا نجدها فى الأعمال العظيمة كجامع السلطان حسن أو الإمام الشافعى أو قلاوون . أو جامع ابن طولون . . أعمال كثيرة تشعرنا بالحضرة المقدسة الكبيرة دون التقيد بصورة من الصور على الإطلاق .

أذكر باختصار شديد النقاط الثلاث التى تكلمنا عنها حتى الآن :

١ ـ الإسلام هو فن الحياة المتكاملة والحرة بتوجيه الله.

٢ ـ الفن الإسلامي يحاول أن يساعد على تحقيق الرؤية ونمط الحياة التي يطالب بها الفكر الإسلامي.

٣ ـ وظيفة الفن الديني بعامة أن يمهد للتجربة الدينية باعتبار أن كل فن يتأثر بعقيدته ورؤياها.

والنقطة الرابعة التي نقولها في حديثنا عن أمل الفنون الإسلامية هي أن الفن الإسلامي ليس مسألة انتهت وعفا عليها الدهر، بل هي مسألة مستقبل، لأنه يتعامل مع فن الحياة المثلى للإنسان والتي تدرك أن هناك وجودا ساريا في الكون كله، وشفاؤنا في التوجه إليه والعمل بهديه.

هذه حقيقة موجودة في الفطرة البشرية وليست عرضية إنما هي جزء من طبيعة الأشياء ومن طبيعة الإنسان. ولهذا فهي ليست تاريخا فحسب بل أزلية وأبدية.

وكل الديانات السابقة حتى القاصر منها في إدراكه كانت تتلمس هذه الحقيقة الكبرى.

والإنسان الذي يرغب في أي نوع من الصحة والسلامة في العصور المقبلة لابد أنه سيبحث وسيجد هذه الوحدة الكبرى والسارية والجامعة، وسيجد أن في الاتجاه إليها والخلوص لها، الشفاء النفسي، وتحقيق معنى الوجود البشري.

وهذا يعني أن للإسلام مستقبلا.. وبالتالي فالفن الإسلامي له مستقبل. وليس من الضروري أن يكون بصورته التي نعرفها اليوم من دراسة تاريخ الفنون الإسلامية، بل إننا لنتطلع لفن إسلامي جديد، تتحقق فيه خدمة الفكرة الأصلية:

الروح والجوهر

وجوهر الروح من أمر الله ويمكننا ـ إذا أزحنا عن أعيننا غشاوة الرؤية القاصرة ـ أن نراه في بدائع الخلق الطبيعي والخلق الإنساني العظيم لأنه

إذا كان الإسلام هو فن الحياة المتكاملة والحرة بتوجيه الله

فهو في الوقت نفسه يتطلب وحدة البشر في إسلام

الوجه لله والعمل بتوجيهه؛ وذلك بتخليص القلب من

الأنانية الصغيرة أو النظرة القاصرة، وأن

يرى الإنسان بينه وبين أى إنسان آخر

هذا الرباط . . أن تنجذب كل المجتمعات

نحو نفس القبلة ونفس الهدف . ونعمل

بنفس الهدى .

فعلينا إذن أن نرى الفن الإسلامى من منظوره الحقيقى، وفى الوقت نفسه نعطيه فرصة للمستقبل .

وفكرتنا اليوم عن الفن تصرفنا ليس فقط عن الفنون الكبيرة، بل عن جوهر نفوسنا ومعنى وجودنا . . ونكتفى بفكرتنا السطحية التى تأتينا من كل جهة . . ونتكلم عن الهواية

ونتكلم عن الصنعة

ونتكلم عن الذوق

نتكلم عن الثقافة بمعنى سعة الاطلاع .

ولكن ما قيمة كل هذا، إذا كانت حياة الإنسان نفسها لا قيمة لها؟

ومن أين تصنع له هذه قيمة ، إذا لم تثمر نموا حقيقيا فى ذاته؟

* * *

الفنون الكبيرة للبشرية سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو هندوكية أو صينية . . إلخ هى محاولة لاستكشاف معنى الوجود ووجودى كإنسان . هذه ليست فلسفة فالفلسفة عدتها الذهن . والحديث الفلسفى لابد أن يعتمد على جمل ومعان ومقولات ذهنية . لكن الرؤية الفنية رؤية وجدانية ببصيرة قلبية .

وقد أعطانا الله البصيرة والوجدان

كأدوات لنستكشف بهما معنى وجودنا

قد نقتنع بالمنطق أن هذا الكون لابد له من مكون دون أن يؤثر ذلك فى كياننا؛ أى نعرف أن الله موجود حسب برهان فلان من الفلاسفة الذى اقتنعت به أنا مثلا، لكن لا يؤثر ذلك فى حياتى فأنا كما أنا،

ولكن الناحية الدينية أو الفنية التى نبغيها

مفروض أنها تنير بصيرتى لحقيقة وجودى،

فتغير كيانى وتجمعه وتستقطبه نحو قمة

القيمة، نحو الهدف الأمثل.

وفى هذه الحالة تتلاشى نفسى الصغيرة بآمالها وأهوائها المحدودة لتتحقق نفسى الحقيقية العظيمة الكبيرة روحى التى هى من أمر الله. وهذا هو معنى الفنون الإسلامية.. والمسيحية والهندية وكل الفنون الكبيرة الأخرى وأساس الخروج من أسر الذاتية الفردية الصغيرة للانطلاق للرحاب الكبيرة للملكوت الذى هو فى الداخل كما هو فى الخارج؛ فى الداخل إذا تبصرت جيدا وفى الخارج إذا رأيته جيدا.

وأهمية الفنون فى روائعها الكبيرة أنها أدوات تثرى هذه البصائر، لذلك نقول إنه لابد من تغيير مفاهيمنا الشائعة عن الفن والصنعة والذوق والثقافة، ونستبدلها بمفاهيم تهدى وتوصلنا ليس فقط للفن الإسلامى، بل لكل فن عظيم يمكن أن نشرح له فيفهمنا إدراك كنه الكون وكنه ذواتنا.

فالأسلوب الفنى الإسلامى هو ما قلنا عنه أنه يسير على النمط الإسلامى ويصف الحياة التى توصلنا إلى الحقائق الإسلامية التى ذكرنا منها ثلاثًا حتى الآن هى :

١ ـ رؤية الكل كمشير إليه.

٢ ـ وتكافل البشر أى المجموعات البشرية المختلفة فى البر، والتعاون عليه.

٣ ـ والنقطة الأساسية وهى إسلام الوجه لله.

فالمفروض أن فن الحياة الإسلامية، وفن التشكيل الإسلامى، وفن التربية الإسلامية يساعد على تحقيق هذه الغايات.

ونفهم الأسلوب الفنى ليس على أنه نمط يمكن أن نتعلمه

هذا إغريقى . . وهذا إسلامى ، ، وهذا فرعونى مثلا

بل الأسلوب عبارة عن حكمة مرئية . .

نمط فى الحياة يصل لمجموعة من القيم . .

يتعشقها الإنسان ويعيش من أجلها

ويكرس حياته لها .

ليس الأسلوب أن تطلب بيتا إسلاميا مثلا أو فرعونيا فهذه الأمور كملابس الممثلين مرة نابليون وأخرى رمسيس وهكذا .

إنما النمط أو الأسلوب هو مجموعة القيم القوطية مثلا أو الهندوكية أو المسيحية أو الإسلامية . .

هذا أيضا من التعديلات التى نريد إدخالها فى مفهومنا عن الفن حتى يمكن أن يكون للفن الإسلامى مستقبل كما كان له ماض .

ونقطة أخرى مهمة .

لقد اعتدنا فى الحديث عن الفن أن نتكلم عن نحت وتصوير وزخرفة وفن تطبيقى وفن جميل وفن مجرد وغير مجرد . من رأى هذا فى الحياة؟ هل توجد فى الحياة هذه الفنون مستقلة عن بعضها . . أبدا فداخل الحياة كل هذه الأمور كمستخلصات .

كذلك الفن الإسلامى : فليست المسألة فى الفن الإسلامى مسألة نحت وتصوير وفن تطبيقى وفن جميل أو أنه كله فن نفعى وليس فيه فن للفن . . إن منطق الفن الإسلامى يجعل مقومات هذه الأقسام المختلفة متكاملة مع بعضها البعض فى العمل الفنى : فقد أعتبر أن القبة أو المئذنة قطعة من النحت ، وكذلك قطعة العمارة كما لو كانت إناء ، وكذلك الإناء كما لو كان قطعة عمارة ، وشكل هذا الجدار كأنه صورة إلى جانب أنه كتابة مثلا أو كأنه شىء مجرد . بالإضافة إلى أن الخلق الفنى الإسلامى يخلق كائنات تمت بصلة إلى الكائنات الطبيعية كما قلنا فى أحاديث سابقة .

فلو تحررنا من الرؤية المقيدة التى تقسم و«تفصص» الفنون ، وحاولنا أن ندرك أن كل هذا موجود فى الحياة ككل مجتمع لأصبح من السهل علينا أن نرى فى منجزات

الفنون الإسلامية العمارة والتصوير والنحت والزخرفة والفن الحر الجميل المطلق والفن التطبيقى فى الوقت نفسه.

أنت إذا زرت كاتدرائية ترى فى الزجاج الملون فى نوافذها صورا تحكى قصصا من الإنجيل والتوراة.. وترى فى العمارة نفسها تماثيل للقديسين والرسل.. ويمكنك أن تحدد: هذا تصوير وهذا نحت موجود داخل العمارة..

إنما فى الفن الإسلامى لايوجد مثل هذا، فمقومات النحت ومقومات التصوير ومقومات العمارة كلها متشابكة مع بعضها ومندمجة ومتكاملة فى كل واحد، فإذا كنت موجودا فى قاعة من قاعات الفن الإسلامى ونظرت للسقف لوجدت صورة.. ولو نظرت إلى الأرض إلى السجادة لوجدت صورة.. وهما فى الحقيقة سقف وسجادة.. ثم إن كل نحت القاعة يظهر فى تقسيم الفراغ فيه، عملية النحت التكوينى التى يتحدثون عنها.

يقول قائل إن الصورة التى تصفها لا تتم على المستوى الفردى، بل لابد لها من مستوى جماعى. وهذا قول صحيح وهو من القيود التى تقف بيننا وبين إدراك الفنون الكبيرة كتلك التى أشير إليها، فالفكرة الفنية اليوم عبارة عن تعبير عن الشخص أو الفرد وهى ممارسة ذاتية تجعل الفن على هامش الحياة، وأصبحت مسألة نشاط فردى حالة خاصة..

فأنا كفنان أعبر عن فرديتى ثم أعرض ما عملته على مجموعة من أصدقائى أدعوهم لزيارة المعرض وانتهى الأمر.

هذا هو ما يحدث الآن وهو بالضبط مالا نقتنع به لأننا إذا كنا نريد فعلا مستقبلا للفن الإسلامى والفكر الإسلامى فلابد أن تتغير الفكرة السائدة اليوم عن الفن.. ومن ضمن ما يساعد على تغييرها ألا تكون فنا فرديا أساسا بل فنا يعلمه الكل لكل الناس.

وقد كان من عظمة الفنون الإسلامية وعظمة كل الفنون الكبيرة للحضارات الكبيرة أنها كانت تصدر عن شىء فوق الذات الصغيرة، وهذا المركز؛ مركز فوق الذات نحن نهمله اليوم ولا نصدر عنه، بل تصدر عن اللاشعور الفردى، بل حتى عن الغرائز الصغيرة للفرد وخصوصياته، بينما نشعر أن الفنانين الذين عملوا أكثر من ألف عام كانوا يعملون وكأنهم كلهم يأخذون من ماعون أكبر وأعلى.. كذلك فى الفنون المسيحية.. والصينية والهندوكية..

فإذا كنا فعلا نطلب التغيير؛ التغيير الجذرى الحقيقى وليس التغيير السهل تغيير الشعارات، فعلينا بالمفاهيم المختلفة للفن والحياة والدين والإسلام والمسيحية وغيرها حتى يبدو التغيير المطلوب ناصعا وعلى أساس متين. والأساس المتين عندنا هو الطبيعة البشرية والدين جزء من فطرة البشر فعلا لأن الإنسان يظل سقيما ومريضا ما لم يهتد لحقيقة نفسه.

والفطرة ليست البيئة. البيئة يمكنها أن تحرف الفطرة وهو ما حدث قبيل أيام المسيحية؛ فقد كانت البيئة الرومانية آنذاك تحرف الكيان البشرى. وأراد الله عن طريق المسيح أن يرتد للناس شىء من الصواب وشىء من الرؤية؛ كانت الناس تظن أن الدين مراسم وشعائر وأشياء من قبيل القرابين وغيرها.. وجاء المسيح ليشير إلى حقيقة معنى الدين: إنه بداخل النفس الإنسانية يوجد الملكوت الذى هو الحقيقة الكبرى الأساسية وبالتأمل والصلاة يتعمق الإدراك بالوجود. فالمسيحية بهذا غيرت المفهوم الذى كان سائدا فى وقت ظهورها.

ونفس القصة مع الإسلام فى بداية ظهوره. فقد كانت هناك الجاهلية ثم جاء الإسلام ليغير الأوضاع والمفاهيم والدين عند الله الإسلام؛ إسلام الوجه له وحده.

لماذا تنجح المسيحية، وينجح الإسلام فى رسالتيهما رغم كل ما حدث؟ لأن كل دين كبير يشير إلى حقيقة لا تهدم موجودة فى طبيعة الكون وطبيعة الناس. بل هى الحقيقة الأساسية لهذه الطبائع. لذلك فالمفهوم الأساسى للدين لن يغنى أبدا ولن يضيع إلا أن البحث عنه سيتجدد وسيعاد اكتشاف نفس الحقيقة: الواحد الأحد.

ونقطة أخرى أود عرضها: أريد للفكرة عن الفن الإسلامى أن تكون واضحة تماما. لا يكفى أن تزور المتحف الإسلامى لتكون لديك فكرة عن الفن الإسلامى، لأنه حتى فى المتحف الإسلامى فالمعروض منه جزء من كثير كثير. فما بالك بباقى المتاحف الإسلامية.. وما بالك بالمدن الإسلامية. وقد رأينا هنا فى القاهرة رغم كل العبث بها كيف كان يفتح باب فإذا نحن داخل رائعة من روائع الإنجاز البشرى العظيمة، نجد فيها الفنون كل فى مكانه، والكل يتكلم كما لو كان يتلو قصيدة واحدة كبيرة من الشعر الحكيم.

ثم رأينا كيف أن عملا فى شارع المعز لدين الله بالقاهرة مثلا بجواره عمل آخر وأمامه ثالث وكلها تتكامل سويا وكذلك الحال فى بعض أنحاء القاهرة الأصيلة، والمدن الإسلامية الأصيلة شرقا وغربا.

فلكى أكـوّن فكرة عن الفن الإسـلامى أحـاول ـ بمجـهـودى وباطلاعى ـ أن أستوعب صورة يسعفنى بها الخيال، على إنجاز الفن الإسلامى عبر العصور فى المنسوجات، فى المعادن . . فى الأخشاب، ، فى العمائر . . فى الأوانى الخزفية . . فى كل ناحيـة من النواحى وأبحث عن الروح الشاملة لكل هذا، والروح من وراء هذا كله، والتى كـان الهـدف منهـا تحقـيق فن الحيـاة على النمط الإسـلامى القلبى الوجدانى العميق.

وحضارتنا أساسها المقدس وهدفها عبادة الله. والرؤية الحقيقية لعبادة الله أن يتكامل الإنسان أى أن ينمو إلى ذروة تكامله متجها إلى الله متعاونا مع غيره فى مجتمعه. والمجتمعات مع بعضها البعض لتعمل على أن تكون القيم الكبيرة التى يشير إليها الإسلام هى التى تعلو. ويمكن للناس أن تحقق فى كيانها رؤية الكل كمشير إلى ذلك الأسمى.

وحضارتنا بذلك لم تقلل من قيمة الإنسان

حين لم تجعله محور الوجود، بل هى

شرفته لأنها لم تزيف وضعه.

لأن عبادة الإنسان ليست تكريما له.

بل إن كرامة الإنسان الحقيقية أن يدرك

أن فى داخله . . فى معنى وجوده الحقيقى شيئا من أمر الله

وأن الحفاظ على هذا فى السماح له بأن يأخذ حده الذى لاحد له.

ويستخدم الفكر والجسم ومادة الكون

فى سبيل تحقيق إرادة الله . .

وهذه هى الكرامة الحقيقية للإنسان،

وهى معنى رؤية حضارتنا التى نريد أن نعيد بناء الشخصية على أساسها لنحقق حريتنا ولندعو إلى تحقيق هذا المعنى قدر المستطاع.

وقد كان فى العصور الفرعونية محاولة له . .

وكان فى العصور المسيحية محاولة له . .

كذلك كان فى العصور الإسلامية محاولة له . .

ونقول إن المحاولات لابد أن تتجدد ولا آخر لها،

٥ ـ أهمية الفنون الإسلامية

تأتى أهمية الفنون الإسلامية من أنها رصدت ـ فى أعمال مشهورة باق منها إلى اليوم آلاف مؤلفة ـ حالات نفسية معينة، هى حصاد الرؤية الإسلامية وهى:

١ ـ الجمع بين الأنيس والقدوس، والأنيس هو الشىء القريب إلى القلب . . المحبب . . والذى يسعد الإنسان . . أما القدوس فهو المقدس .

فإذا زرنا بيتا من البيوت الإسلامية الجميلة كبيت السنارى مثلا، ودخلنا قاعته الكبرى، أو قاعة من قاعات بيت السحيمى بسقفها العالى ومشربيتها الجميلة ـ سقفها عظيم وأرضها كذلك ـ فإننا نشعر بمعنى البيت؛ البيت كالأم يذهب إليها الإنسان ويأنس لها ويطمئن ويشعر بالانتعاش والسعادة، وهو عائد بعد التعب والنصب فيطمئن قلبه ويحب جو مثل هذا البيت .

كذلك لو زرت مقاما كمقام السيدة رقية مثلا وهو تحفة معمارية جميلة من العصر الفاطمى : ضريح جميل أقامه الفن الإسلامى تحية للسيدة رقية لامكان فيه لجلال جامع السلطان حسن مثلا ولا عظمة ورفعة ضريح قلاوون، بل فيه الأنس واللطف وجو الألفة الذى يليق بمقام سيدة . وهو فى الوقت نفسه حرم؛ أى يمكن أن يتجلى فيه الله بيسر للشخص العادى .

إن الله يتجلى فى كل مكان . فقط يتطلب الأمر أن يكون قلب الإنسان صافيا ومستعدا أن يرى الله فى كل شىء .

نرى الجمع بين الأنيس والقدوس أيضا فى سجادة جميلة؛ والسجادة الإسلامية ليست صورة لمنظر بل هى صورة مصغرة لجنة تحت قدميك بحيث تشعر وأنت جالس عليها بالجو الفردوسى الذى يتطلع إليه القلب المسلم لذلك يشعر الإنسان أن عليه أن يتخلى عن حذائه ولا يطؤها به .

٢ ـ الجمع بين البطولى والصوفى : والبطولى ـ كما نعلم ـ هو الشخص المستعد لأن يتحمل كل الآلام والصعوبات بل والمستعد لأن يضحى بنفسه فى سبيل مبدأ أسمى .

وعند الأم ـ مثلا ـ بطولة ؛ لأنها تشعر أن الطفل أمانة فى عنقها فلا تشعر بتعبها هى فى نظير أنها تنشئ الأمل الجديد . .

وبهذه المناسبة فى كتاب إنجليزى جميل لناقد ممتاز هو «برادلى» حديث عن السامى الجليل، يقول ما معناه «إن السامى أو الجليل فيه شىء من الرعب أو شىء من الوحشة بمعنى أنه يهز الكيان بعكس الجميل الملىء بالأنس . إنما الجليل يبعث فى النفس الخشية وقد يقشعر الجسم له . . ثم يقول أرجو ألا يساء فهم الجليل فالهرم مثلا جليل وكذلك شلالات نياجرا، ولكن رأيت منظرا ليس فيه شىء من الرعب أو الخشية ومع ذلك فقد أشعرنى بالجليل ثم حكى عن طائر؛ أم صغيرة فى عشها فرخ صغير ضعيف، وجاء كلب متوحش وذهب للعش ليأخذ الفرخ . ورغم ضعف الأم الذى لا يتناسب إطلاقا مع وحشية الكلب إلا أنها لم تتردد لحظة فى أن تهاجم الكلب بكل شراسة . هنا شعرت بالسامى» . .

أى أن «برادلى» شعر فى هذه القصة أن الأم تمثل الأمومة . .

والأمومة هنا مثلت جلال الأمومة وسمو الأمومة وهذا موقف بطولى من الطائر الصغير لأنه لم يفكر فيما قد يصيبه من وحشية الكلب وقد يكون ـ لو أنه فكر قليلا ـ متحفظا بعض الشىء . إلا أن البطل لا يهتم بالخطر بقدر ما يهتم أن ينتصر للحق . فإنه يقتنع أولا أنه على حق . حينئذ يتقدم ويتقدم .

وليس من الضرورى أن يكون البطولى صوفيا، فغرض الصوفى متصل بالسماء . . بالله؛ أى أنه يعمل كل شىء لوجه الله، يحب فى الله، ويعادى فى الله، ويحارب فى الله، ويسالم فى الله . إن هدفه الأساسى هو الله .

فأين نرى الجمع بين البطولى والصوفى؟

وأنت قادم من بعيد تلمح المقطم ومن فوقه قلعة صلاح الدين وجامع محمد على . إنى أعتبر أن هذا الجمع يُنسى حين يُدرَّس التاريخ . يدَرِّسون مَنْ بنى القلعة؟ ومن بنى جامع محمدعلى؟ ولكنهم ينسون عملية الجمع بين الاثنين، بينما

الجمع فى ذاته هنا عمل فنى. كمن بنى جامع برقوق بجوار قلاوون، فهنا نوع من التكامل . كمن بنى الرفاعى بجوار السلطان حسن، فهذا الوضع عمل فنى لا يحسب حين يدرس التاريخ. قد يظن أن مثل هذه الأمور جاءت صدفة، بينما العمل الإنسانى الرشيد فيه توفيق من الله . وفرق بين التوفيق والصدفة ، ففى قلعة صلاح الدين وجامع محمد على جمع بين البطولى والصوفى .

وقد رأينا مثل هذا الجمع من قبل حين زرنا جامع المؤيد شيخ ورأينا كيف وضعت مئذنتا الجامع فوق طابيتى باب زويلة . فطابيتا البوابة كالحصن المتين ووضعت المئذنتان خارج الجامع لتجمع بين الصوفى والبطولى كرمز؛ فهناك أبوابه الحصينة وفيها ناحية البطولة والقوة والصمود ومن فوقها وضعت المئذنتان؛ والمئذنة الإسلامية تؤذن طول الوقت؛ بالمئذنة الإسلامية تؤذن عن طريق تشكيلها .

هى تقول الله أكبر «كالأذان» . . تقول

«الله واحد» تشكيليا . . تقولها باستمرار

لكل من عنده بصر وبصيرة . .

فى جامع السلطان حسن أيضا هناك جمع بين الصوفى والبطولى؛ وقلنا عن الصوفى إن هدفه هو الله دائما فى كل عمل من أعماله . والبطولى هو القوى فى الحق، المستعد أن يقاوم بصرف النظر عن ذاته، أى بعيدا عن الأنانية كل البعد، قويا ومستعدا أن يضحى بكيانه فى سبيل المبدأ .

٣ـ يؤلف بين الطبيعى والمصنوع . ونعود ثانية لقلعة صلاح الدين لنرى كيف وحد بين البناء وبين الصخرة . . وفى شارع صلاح سالم حيث تتوالى المآذن والقباب المملوكية فى تآلف عجيب مع هضبة المقطم . . الهضبة الطبيعة صنع الله والمآذن والقباب صنع الإنسان . . الوحدة بين المصنوع والطبيعى رغم ما يقال من أن الفن الإسلامى ينأى عن الطبيعة .

وأعتقد أن هذا الكلام سطحى لأن الفن الإسلامى يتبع توجيه الإسلام فى أن يكون الإنسان دائما فى حالة تأمل لمخلوقات الله عز وجل، وأن يعمل بهدى منه؛ أى أن إبداع الفن الإسلامى جاء من أنه بهدى من الله وليس بهدى من هوى البشر . والفنون الحديثة التى يعبر فيها الفنان عن نفسه هى تعبير نابع من أهواء النفس . . من

هوى الفنان بينما يقول الفن الإسلامى لا تجعل إلهك هواك، بل لابد أن تتحكم فى هذا الهوى وتوجهه ليخضع لمشيئة الله .

والعمل بتوفيق من الله ويهدى منه ليس هو سر إبداع الفنون الإسلامية فقط، بل هو سر وحدتها أيضا لأن الهدف واحد والمستلهم واحد : إنه يعمل من أفق فوق نفسى . . من أفق المحل الأعلى، بينما تعمل الفنون المعاصرة من الهوى الذاتى . . من العاطفة الفردية .

هذه التجمعات الثلاثة مهمة وأدت إلى أهمية الفنون الإسلامية . لماذا مهمة ؟ كنت أخيرا فى باريس . . إن ما أعجبنى فى باريس المتاحف والحدائق وليس المدينة بعمائرها لأن العمائر لا أنس فيها . . قد يعقد فى قصورها مؤتمر أو قد يكون القصر بلاط ملك نعم، ولكن أن يكون مكانا يرتاح إليه قلبك وتسعد فيه وتطمئن نفسك لا .

لقد فقدت الفنون من بعد عصر النهضة وحتى الآن ذلك الأنس، وقد علّق على ذلك أحد النقاد الممتازين فقال: إن الصورة فى عصر النهضة تدعوك وتتمنى لو أمكن أن تدخل إطارها وتشارك السعادة والبهجة داخل الصورة لكن من يحب أن يدخل صورة حديثة أو يشارك فيما يرسم فى لوحة حديثة !؟ لماذا ؟ لأنها ليست محببة للقلب البشرى بل بالعكس إنهم يسمونها فنون الصدمات للبرجوازية . .

بينما الفنون الإسلامية تشعرك بالأنس والطهارة وحرمة القدسية فإذا دخلت بعض الأسواق مثلا وبالقاهرة بقايا منها «كخان الخليلى» أو«التربيعة» فإنك تشعر للتو أنك فى بيتك رغم أنك لا تعرف الناس؛ فالدكان عالٍ ومفروشٌ بالسجاد والبائع يجلس فيه ومعه الزبائن فى جو من الألفة عجيب .

فالجمع بين الأنيس والقدوس . .

وبين البطولى والصوفى . .

وبين الطبيعى والمصنوع . .

دروس نحتاجها اليوم؛ لأن الحضارة الحديثة بها علم عظيم وقدرات تكنولوجية رائعة . هذا حق، ولكن لا أنس ولا حتى بطولة . أما الصوفية فكادت أن تختفى . وبين الطبيعة والمصنوع نشاز كبير . من هنا جاءت أهمية الفنون الإسلامية باعتبارها

دروسا للإنسان العاقل والحساس لكى يعرف كيف تكون نوعية من الوجود البشرى عن طريق أناس أرونا إياها .

٤ ـ أهمية الفنون الإسلامية ترجع أيضا لمحتواها؛ فحين تزور ضريح الإمام الشافعى مثلا وقد زرناه سويا وأحب أن يذهب الإنسان هناك وحده مرات ومرات، هنا تشعر أنك تذهب للملاذ . . لحمى . القلب البشرى يحتاج لهذا . . عنده شوق لملاذ أكبر منه . تشعر هناك بما ضمنه المعمارى فى هذا العمل الرائع من سلام وطمأنينة واستقرار . . تشعر بنفسك وقد اصطلحت مع بعضها البعض . . وتود لو أنك بقيت فى هذه الجيرة الطاهرة الرائعة المقدسة العظيمة .

فلا بد لنا أن نبنى نظرتنا الجمالية على أعمال فنية تعرفها ويمكننا الذهاب لرؤيتها ومعايشتها . ولدينا فى مصر من الروائع ما يتمنى العالم كله أن يتمكن من زيارتها وتأملها ليتعلم منها أبعاد القلب البشرى وآماله وما حققه عن طريق العمل الرصين الممتاز .

٥ ـ فى الفن الإسلامى فلسفة عمل نحن فى أشد الحاجة إليها أيضا وأتكلم عن العمل الإسلامى الكبير ـ والمتحف يأخذ أسطرا من كتب ـ هى المدن والبيوت والجوامع وما إلى ذلك . ولكن كل هذه مقتبسات . أما روح المكان كما مثلت بضريح الإمام الشافعى أو بمسجد السلطان حسن أو بشارع أو بمدينة إسلامية حيث تشعر أن كل الناس تعمل مع بعضها لتخرج عملاً واحداً . لابد أنهم كانوا سعداء لأنهم يعملون سويّا . وكل منهم يمارس حريته ويضيف للآخر، والكل يقولون معنى جليلاً عزيزاً .

إن السعادة عن طريق المشاركة فى العمل . . البهجة فى العمل جزء من أهمية الفنون الإسلامية ، فلم تكن لتوجد هذه الإبداعات وهذه الوفرة من حيث الإنشاء لولا أن هؤلاء الناس أحبوا العمل . ولا كانت تلك الأعمال الدقيقة المضنية لتصنع تحت وطأة الكرباج، بل لابد أن قد صنعت بحب وبشوق للإتقان .

٦ ـ حين أطالع تاريخ مصر الوسيط : أجد أن سيرة الحكام قد تكون غير مرضية فى الأغلب . ولكنى كنت أذكر نفسى ـ دائما ـ بأن المهم ليس الحكام، ولكن الناس، الذين يصنعون هذه الأعمال الرائعة؛ الفلاح فى حقله . . والعامل

فى عمله . . هؤلاء ومعهم أبطال الصوفية والعلوم الدينية، هم من كانوا النقط المبهجة فى الفترة الوسيطة . . هم من قاموا بمثل هذه الروائع الموجودة هنا بالمتحف الإسلامى . لم يكونوا مجرد فقراء، بل فقراء وحكماء . لأن الحكيم هو من يجد خلاصه فى إخلاصه لعمله . . خلاصه أى سعادته فإذا أخلصت فى عملك وتغييت الأسمى، فأنت حكيم، لأنك تجد طريقًا إلى السعادة يحبس كثير من الناس أنفسهم عنه، لأنهم لم يتعلموا . كل ما تعلموه أن من لا يعمل فهو الفالح .

ولكن حكمة هذا البلد أنها كانت تدرك أن من يفلح هو من يصنع وبدل أن يأخذ نقودك بالغش يأخذ قلبك بإبداعه فى العمل، ويحقق قلبه هو، وحياته هو، عن طريق أنه وهب طاقته كلها فى أن يبدع شيئًا يسبح لله . وهذا جزء من أهمية الفن الإسلامى حين تدرك الإنسانية مرة أخرى هذا المعنى للعمل .

٧ ـ طريق التكامل هو العمل الفنى : ويسألون عن تربية التكامل وكيف أن التربية الحديثة تهمل عملية التكامل ! فكيف إذن نساعد التكامل والنصائح لا فائدة منها ؛ وأقول إن هذا الموضوع جدير بأن يدرس . لكن رأيى فيه إلى الآن ـ ومن الخبرة الذاتية ـ أن طريق التكامل هو العمل الفنى المتقن الجميل . فمهما كنت تعمل، حين تضع قلبك فى عملك الذى تعمله، وتتقنه، فهو يكامل نفسك . . يجمعها ويساعدها على التكامل، على أن تلاحظ هذا فى كل عمل من أعمالك وليس فقط فى عملك الفنى من صورة أو تمثال . . فى علاقتك بالأصغر منك وبالأكبر . . وبالجار . . وحتى بالشخص الذى بينك وبينه عداء، إذ لابد أن تعمل الجميل فى كل ناحية من النواحى . فنحن ـ أصدقاء الفن والحياة ـ نعتبر العمل الفنى ليس مجرد التحف الممكن وضعها فى المتحف بل هو أى عمل بشرى يُعمل غير مبتور ويمكن أن تتجلى فيه قيم إنسانية هى سر من أسرار الجمال .

٨ ـ العلم وحّد العالم اليوم : فاليوم تؤثر الحرب بين إنجلترا والأرجنتين على جميع البلاد ؛ لأن وحدة البشر من الناحية المادية أصبحت حقيقة نعانى من عدم قدرتنا على مواجهتها إنسانيًا بما ينبغى من أمر . بعكس العصور الماضية حيث كان من السهل ألا نرى بما يحدث فى باقى أنحاء العالم .

هنا أهمية الإسلام

وأهمية المسيحية،

وأهميـة كل دعوة روحية تسعى إلى أن يكون البشر جميعا إخوانا كالبنيان المرصوص، ويدرك الجميع أنهم يعيشون فى عالم واحد، وأن المنفعة الحقيقية لواحد هى المنفعة الحقيقية للكل .

كيف يمكن للناس أن ترى هذا ؟

أن ترى أن الأسمى . . المقدس . . الأكبر . . المحور الروحى فى الحياة هو الأصل والمنبع، هو من إليه المرد والمعاد . . هو الله .

أن يرى الناس أن هذا المبدأ الأساسى الحق والحقيقى للوجود كله واحد أحد، ويجمع الكل رغم اختلاف الأسماء . ويأتى دور الفنون الإسلامية فى أنها قادرة - عن طريق العمل - أن تتيح حضرة هذا المقدس لبصيرة المتلقى من العامة، الأمر المتاح لبصيرة الخاصة؛ الذين يعون فعلا هذه الحقيقة، ويمكنهم الإحساس بهذه الحضرة عن طريق الفن فى جامع السلطان حسن مثلا، أو فى ضريح قلاوون، أوضريح الإمام الشافعى، وفى أشياء كثيرة لا تحصى . . يرونها أيضا فى الطبيعة حين يتأملونها .

لأن الفن هو أستاذ الرؤية

كل فن كبير يعلمنا كيف نرى

فالفن نموذج للموجود أدركه وجدان ممتاز

وحققه بموضوعية أتاحته للكل

ورد فعله يمكنك من إدراك هذا

إذا أخذته كمنظار مكبر يساعد على رؤية

هذه القيم فى الحياة . ومن هنا تأتى أهمية الفن فى التربية .

الفن ليس لمجرد تربية الملاحظة كما كان يكتب فى مقدمة المناهج فى الماضى .

إنما الفن يجسد قيما . ولكى أرى هذه القيم فى نفسى وفى الآفاق من حولى علىّ أن أدرك أن عَلَى قمة هذه القيم قمة القيمة - الله - الذى هو أكبر من كل شىء . .

وأجمل من كل شىء . .

وأكمل من كل شىء .

ومن هنا وحين يأتى العصر القادم الذى نأمل أن تكون البشرية قد تنبهت فيه إلى الحلم أن أمرها أصبح شيعا وفرقا، لأنها لم تدرك الوحدة الرابطة للكل، وهى الله، وأنه واحد أحد لا شريك له، رغم اختلاف الأسماء، وهو مجرد عن الصورة، وكلنا مدعوون لرؤياه، والفن العظيم مقدمة إلى هذه الرؤية، سواء كان فنا إسلاميا أو مسيحيا أو هنديا أو صينيا أو كفن القرن ال١٧ مثلا "كرمبرانت" أو "الجريكو" . وليس من الضرورى أن يكون موضوع العمل دينيا فكل عمل من الأعمال الفنية العظيمة تقربك ـ عن طريق الجميل والجليل ـ إلى الاستشعار بوجود الله فى الحياة .

من هنا فسيكون هدف المربيين فى العصر القادم أن يعملوا على تكامل النفس البشرية عن طريق العمل السوى وليس العمل من الهوى . . العمل لتستجمع النفس البشرية وتحس وتحقق نفسها، وتجمع البشر والوجود كله من نبات وجماد وحيوان فى كينونة واحدة تشير إلى واحد، هنا تأخذ الفنون الإسلامية أهمية جديدة . . وقد تصحح سوء الفهم ليس نحو هذه الديانات فقط بل نحو الحياة نفسها، ويصبح لهذه الفنون مستقبل وليس مجرد تاريخ .

٦ ـ الفن والفطرة

حديثنا اليوم عن الفن والفطرة وسوف نتناول فيه جانبًا بسيطا ودقيقا ولكنه غاية فى الأهمية .

نحن نعلم أن الإسلام دين الفطرة . ونريد أن نتعمق قليلا هذا القول :

أولاً : ما هى الفطرة ؟

الفطرة هى الطبيعة . . هى خلق الله . نحن نعلم قليلا عن الفطرة، وكلما ازدادت معرفتنا كلما ازداد وعينا بقلة معرفتنا ؛ لأن الفطرة غير محدودة .

وربما كان مما يمكن أن يقال عن العمل الفنى، إنه يشحن المصنوع البشرى بلا محدودية الخلق الطبيعى .

الخلق البشرى العادى محدود . .

إنما خلق الله غير محدود فى أى من مبدعاته . أى أن الزهرة أو ورقة الشجر أو الحشرة أو جناح البعوضة غير محدودة . والعلوم والفنون تتكشف دائما مزيدا لم يكن معلوما من قبل على المستويين الذهنى والوجدانى، ومستوى الدلالات . فالفطرة غير محدودة، ولكن شاء الله أن يحدد للمخلوقات المألوفة لنا من حجر وشجر وحيوان ما يمكن أن نقول عنه إنه من الفطرة كالغريزة مثلا .

ولكن فيما يختص بالإنسان فإن فطرته - إذا تميز بإنسانيته - لا تكون محدودة كمحدودية الحيوان بالغريزة مثلا أو كمحدودية الجماد بالقانون الطبيعى، بل يكون البديل هو العمل الخلاق الذى يجتمع فيه الإنسان قلبا وعقلا وحسا، ويصبح - بذلك - هذا العمل عملا فنيا .

لهذا أحب أن أدعى أن الفن هو فطرة الإنسان . وهنا تأتى فرصة الإنسان للاختيار؛ فيمكنه أن يحسن أو يسىء، ومن أحسن فإنما يحسن لنفسه أى لفطرته ومن أساء فعليها .

ثانيا: رغم أننا لا يمكننا أن نحدد فطرة الطبيعة البشرية إلا أننا نتمكن من أن نشير إلى جانبين أساسيين ينزع إليهما الإنسان فطريا :

الجانب الأول هو التكامل والثانى هو الوحدة .

أى إذا كان الإنسان يتصرف فى خبراته وفى أعماله كإنسان، وليس تصرفا آليا، ولا كمجرد حيوان بشرى، إنما كإنسان كرّمه الله بما وهبه إياه من فطرة خلاقة فلابد أن يسعى - حسب هذه الفطرة - إلى التكامل من جهة وإلى الوحدة من جهة أخرى .

وهذا مدخل آخر للموضوع الذى أريد أن أشرح من خلاله مزيدا من السر فى أصالة الفنون الإسلامية .

ما الذى جعل الفن الإسلامى يتميز بمذاق خاص . . وشكل خاص . . ومكنون خاص؟ السبب ببساطة أنه يتميز بقلب خاص . وهذا القلب الذى أشرنا إليه سابقا باسم الرؤية الإسلامية عبارة عن ترجمة للأساسيتين فى الفطرة؛ التكامل والوحدة .

لنرجع بالتاريخ البشرى للأيام الأولى فى العصر الحجرى القديم . . وفى أعمال الإنسان فى ذلك الوقت لمنجز مشهور من منجزاته هو ما نسميه البلطة الظرانية وموجود منها أمثلة قد لا تحصى عدا . وبعضها يبلغ من الإتقان درجات تصل من الروعة ما يجعل الإنسان يقتنع بأنها تحف وأعمال فنية، بينما هى فى حقيقة الأمر عبارة عن أدوات أنجزها الإنسان من حجر الصوان : شذبها وشكلهابحيث تؤدى وظيفتها فى الحياة من الناحية العملية . ولكنه فى الوقت نفسه أسبغ عليها وأضفى من النظام وحسن التشكيل ودقيق الصنع ما جعلها تستحق أن تعتبر منجزا فنيا يثير فى الوعى الحساس الإعجاب .

هنا حصل تكامل وحصلت وحدة :

تكامل من الناحية المادية والناحية المعنوية حيث لا فاصل بين الحجر وبين يد الإنسان التى ستمسكه وبين سن الحجر المفروض أن تكون فاعليته أتم حتى يؤدى وظيفته أى اجتمع كثير فى واحد .

إذا نظرنا إلى هذه التحف الأولى أو البذور الأولى للفن فى تاريخ الإنسان وهى البلطة الظرانية وانتقلنا منها إلى باب عظيم فى الفن الإسلامى هو باب جامع السلطان حسن . الموجود حاليا فى جامع المؤيد شيخ .

نجد على هذا الباب، وفى مادة معدنية، ما يسمى بالأطباق النجمية . . فإذا استحضرناها فى ذاكرتنا فمن الممكن أن نتصورها عبارة عن عقد من بلطات ظرانية استدارت حول مركز إشعاع واحد .

وتذكرون شكل البلطة الظرانية : هى مدببة وكالمثلث ذى القاعدة المدورة وما زال هذا الشكل محبوبا فى الحلى الشعبية حتى اليوم . كما نجده ضمن خرزات الفن المصرى القديم .

حين نتصور هذه الأطباق النجمية كما لو كانت نموا للبذرة الفنية الأولى واجتمعت فى دورانها نجد أنها خلقت نجمة فى الوسط . هذه النجمة رمز أثير فى الفن الإسلامى .

ولما كان الفن الإسلامى مغرم بالتكثيف أصبح بدل النجمة الواحدة مجموعة نجوم مشتركة فى مركز واحد تنطلق منه إلى الخارج وكأنها دفعات متدفقة من إشراقات نجمية لا حصر لها . فللفن الإسلامى ولع بأن يعكس فى مبدعاته هذه

اللامحدودية الإشراقية؛ حيث تجد فى الوسط مركزا به نجمة وبه نجوم أخرى تنطلق منها إشعاعات تقابلها أو تتجه إليها هذه القلوب التى تحيط بها فى شكل دائرى وكأنها تتلقى منها ذلك الإشعاع. . ذلك العطاء.

إن ما يسمى زخارف إسلامية

ليس بزخارف، إنما هى رموز لمكنونات قلبية

وفى هذا الرمز الذى يسمى أطباق نجمية والتى أحب بعد كل ما قلته أن أسميها مدارات إشراقية. . هى مدارات تتلقى إشراقات بلا حد وفيها الوحدة وفيها التكامل. . فيها الأخذ وفيها العطاء. . فيها رمز لما ينشده ضمير الإسلام من أن يجتمع الإنسان على قلب واحد؛ أى لا تشد من الإنسان نزوة أو حركة إلا بمقدار محسوب، وعلى هدى محسوب وفق الإرادة الإلهية. .

ولو أردت أن تبتكر رمزا هندسيا فنيا لهذا،

فستجد أن هذه الاستدارات الإشراقية

هى رمز فنى لهذا المطلب الدينى الإسلامى.

أى أننا إذا تصورنا كل قلب فنى من هذه القلوب التى شبهناها بالبلطة الظرانية يمثل دفعة من دفعات أو ميلا من ميول النفس الإنسانية البشرية نجد أنها متقابلة ومتعارضة ومتجهة لاتجاهات متعددة، ولكنها رغم ذلك متكاملة كلها وتتسم بالوحدة.

فإذا كان هناك مجتمع مسلم كما يتطلبه الإسلام تكون هذه المجتمعات الإشراقية هى الرمز التشكيلى لهذا المجتمع حيث يتعاون الأعضاء العديدون فى عمل مجتمع منسق لا يتضارب بل يتآزر فى نشاطاته، ويتلقى الكل من مركز واحد فيض الإشعاع أو الإشراق أو المعنى أو العطاء.

وإذا وجد مجتمع آخر بعيد عن هذا المجتمع فإنه يتسم بنفس الصفات. ولو تذكرنا هذه التصميمات كما تبدو فى باب من الأبواب التى تحمل هذه الرمزية التى أشرنا إليها لوجدنا أنه لا يوجد فراغ بين هذه المجتمعات. . لا يوجد خواء ولكن توجد ترابطات وتشابكات وعلاقات هندسية محسوبة مرسومة تربط الكل ببعضه

وتجعل من مجتمع ومجتمع وآخر وآخر إلى غير نهاية كلا متماسكا متآزرا وغير متنافر مع بعضه البعض فكأن هذا التصميم الإسلامى ليس مجرد شكل

يريح العين فقط. بل هو شكل له دلالات

تتعدى البصر إلى البصيرة.

وإذا انتقلنا فى التاريخ خطوة للأمام. . إلى العصر الحجرى الحديث والذى بدأت فيه الزراعة. . وعدنا للأطباق النجمية، فإننا نجد هذه الأخيرة فى بعض الأعمال من الفن الإسلامى حافلة بالنباتات. فكأن النباتات هى إضافة جديدة لهذا الرمز القديم. . نوع من التكثيف فى المعنى. . ممكن أن تعتبر هذه النباتات رموزا للبيت الصالح أيضا، «وأنبته نباتًا حسنًا». والنبات نفسه يسعى إلى النور أساسا. فكأن هذه المدارات الإشراقية قد جمعت بين حنان النبات وبلورية وصفاء الهندسة التى تستتر وراء المرئى.

نحن نعرف اليوم علميا أن ما نراه حولنا من مادة هو أنظمة تحكمها علاقات يمكن أن تصاغ بوصفها القوانين الرياضية العلمية. وحسب اختلاف نوعية النظام تكون نوعية المادة. . فهنا أيضا يمكننا أن نتصور ـ لو تعمقنا أكثر ـ أن الرمزية لا تتبع هوى أو هوسا أو مجرد محاولة للاختراع، إنما هى تحاول أن ترمز ـ وبشكل أدق ـ لشىء من طبيعة الوجود عندما يتحرك بهدى القانون الأسمى. وإذا أطاع الإنسان هذا الهدى فإنه لا يكون شاذا عن بقية المخلوقات بل يكون هو الإنسان المسلم الذى أسلم قياده لله.

أريد أن أبين أن فطرة الإنسان هى الفن

وأن الإسلام لا يطلب من الإنسان أكثر من اعتبار فطرته، وعدم العدوان عليها، وتنميتها والوعى بها والوصول بها لغايتها، وهى الوحدة والتكامل.

كما أريد أن أبين أو أحاول أن أبين كيف أنه يوجد بين الإسلام دين الفطرة وبين فطرية الفن الإسلامى رباط متين.

وميزة التجريد فى الفن الإسلامى لها أكثر من سبب: فهو ينأى بك عن التشبيه وهنا له فضيلتان ؛ الأولى أنك تتعدى الجزئى إلى الكلى، وتتعدى الصورة إلى ما وراء الصورة. والثانية أنه لا يضع حجابا بينك وبين العمل ؛ أى أن الفن الإسلامى لا يطلب من المتلقى الحساس المتفتح القلب الذى يعطى نفسه فرصة تلقى إشعاعات

العمل الفنى، أكثر من هذا ليلقى فى روعه بمضمونه ومكنونه. بينما فى بعض الفنون الأخرى كالتي تلجأ إلى الأسطورة فى العمل الفنى مثلا كوسيلة من ضمن وسائل التعبير يشترط أن يكون المتلقى على علم ووعى بهذه الأسطورة.

الفن الإسلامى للناس كافة.

كما أن الإسلام نفسه للناس كافة.

فهو ينأى عن الأسطورة إلى التجريد وهى فضيلة بل حكمة فى الفن الإسلامى.

حين نتأمل ما أسميه الدوائر الإشراقية نجد أنها ليست فتوسا بدائية من الظران بل هى قلوب بشرية، أو رمز لقلوب متجهة إلى مركز الخلق تتلقى منه ما يفيض عليها به من نور أو من ماء وحياة عن طريق الدفعات المتدفقة من النجوم بلا حصر، المشتركة فى المركز.. الفن الإسلامى يعشق السماء..

وكلنا - أهل بالأرض - حين تضيق بنا الأمور نتجه إلى السماء.. إلى فوق.. إلى الله فهو الملاذ..

وللفن الإسلامى هذا الولع بالسماء وما أكثر النجوم فيها. والنجوم رمز للسماء. وليست النجوم وحدها بل القباب والمآذن والشرفات من فوق أعلى المساجد هى أيضا تعبير عن عشق السماء فهى تشير إلى ذلك الحنين فى القلب المسلم إلى الله.

فكأن جميع القباب وجميع المآذن وجميع

الشرفات تعمل كأطباق نجمية أيضا

أو كدوائر إشراقية - كذلك الحجيج

فى مكة والمصلون فى أنحاء العالم حيث

يوجد مسلمون هم أيضا ينشدون أسلوب

التكامل والوحدة الذى يعبر عنه كل من الفن الإسلامى

من جهة والدين الإسلامى عندما يفهم فى صميمه من جهة أخرى.

٧ـ الدين الحنيف والفنون الإسلامية

هذه المجموعة من الأصدقاء ـ أصدقاء الفن والحياة مجموعة تحاول أن تزيح الفرق بين الفن والحياة لتصبح الحياة فنا وليصبح الفن حياتا ـ هذه المجموعة تختار فى كل عام موضوعا واحدا تدور حوله الأحاديث الشهيرة للعام كله. ففى العام الماضى مثلا كان الموضوع هو «فقه الحياة وفقه التشكيل الفنى» وذلك لوجود رباط بين مفهوم الحياة، وكيفية ونوعية التشكيل الفنى.

وقد تخيرنا هذا العام موضوع «الفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها» لأننا نعتقد أن الفنون الإسلامية من الفنون العالمية الكبرى الأصيلة، وأنها مهمة للبشرية قاطبة وليس للعالم الإسلامى فقط، ومهمة أيضا ليس تاريخيا باعتبار ما كان بل مهمة أيضا باعتبار ما يمكن أن يكون فى المستقبل.

وبالنسبة لنا فى مصر تعتبر هى الأساس الذى انطلقنا منه إلى الأسر الثقافى الذى نعيشه اليوم والذى مازلنا ـ فيما يختص بفقه حياتنا ـ مدينين له ومتأثرين به فكرا وثقافة رغم هذا الأسر الثقافى.

وواقعنا الفنى المحيط بنا كفقهنا للحياة فى بعض جوانبه أيضا دخل تحت أسر غريب هو أسر لسطحية الحضارة المعاصرة.

كنا نحاول أن نفهم معنى أن الإسلام دين الفطرة مع أننا نعتبر هذا بدهية تتردد فى وسطنا الفكرى.

وقد حاولنا أن نقوم باجتهاد فى شرح هذا المفهوم، والاجتهاد محاولة فى التفكير قد تخطئ وقد تصيب، لذلك نقترحها على مجموعة الأصدقاء للتمحيص، ونقول:

إن الفطرة البشرية للإنسان غير الملموس بنشاط إنسانى نحن لا نعرفه.

أى أن الفطرة النفسية للإنسان دائما ـ حين نعرفها ـ نكون قد بدأنا نؤثر عليها. من هنا كان من الصعب جدا الوصول إلى الفطرة الخالصة لذلك خاطرنا بافتراض نقطتين أساسيتين يخيل إلينا أنهما مركوزتان فى الفطرة البشرية، أشرنا إليهما فى الحديث السابق. هما التكامل والوحدة. وقلنا أيضا إن الفطرة البشرية هى فطرة فنية، أو إن الفن هو الفطرة البشرية؛ لأن الإنسان حين يتصرف، يتصرف وهو جزء من مجتمع، وهذا المجتمع له ثقافة أى أسلوب فى الحياة.. نوعية فى الحياة تتخير

من مكونات تركيب النفس عناصر معينة وتحاول أن تصنع منها وحدة توجه بها سلوك الإنسان. هنا يصبح سلوك الإنسان عملا فنيا، بصرف النظر عن كونه عملا ذا قيمة عالية، أو ذا قيمة هابطة، إنما هو عمل فنى. . نشاط فنى فيه عملية ابتكارية مختلفة عن نشاط مجتمع النمل مثلا، وكلنا يعرف نظامه المحدد المشهور المكتوب فى وراثته. أما فى الإنسان فإن سلوك المجتمع البشرى فى عمل عمارة مثلا، أو مدينة، يتغير حسب الأنماط الفنية التى يتبعها الإنسان أو المجتمع والتى لا يمكن أن تحدد.

نقطة أخرى أضفناها فى الحديث السابق هى أنه إذا تكامل الإنسان وتوحد يصبح عنده الاستعداد للخبرة الدينية المباشرة ويمكنه بيسر أن يتكشف أن الكون أيضا واحد. . وإن معنى هذا الكون فى آخر الأمر هو الله. بل إن كل الحياة التى يمكننا أن نتعرف عليها، مكنونها وضميرها ومعناها وأصلها هو الله. وأن هذه الرؤية تتكشف لمن تيقظت داخله أساسيات كيانه كإنسان، وتآزرت وتعاونت وتكاملت وتوحدت. فيرى الوحدة الموجودة وراء الكون ويسلم لها.

وللإنسان ميزة ونقيصة وهما أنه فى إمكانه أن يخطىء وأن يصيب.

وهو يصيب حين يسلم لله؛ أى يعمل بهديه وبوحى منه ويصبح طوعا له، لأنه رآه بصيريا وأدرك أنه أصل الكل، فامتلأ شوقا أن يتوحد معه توحد محبة لتصبح إرادته طوع هذه الإرادة. . وهذا معنى الإسلام وبهذا الشكل يصبح الإسلام دين الفطرة من وجهة نظر هذا الاجتهاد الذى قلنا عنه.

وعندئذ إذا كنا نكلم أناسا لا يعرفون الإسلام لأنهم لم يولدوا مسلمين وحاولنا أن نشرح لهم ،ونقدم لهم الإسلام من غير أن نقحم مسائل نطلب منهم التسليم بها دون فهم فإن أسلوبنا هذا يكون أسلوبا فعالا.

وقلنا أيضا عن الإشراقات النجمية فى الفن الإسلامى إنها رمز لتوحد وتكامل الفرد أو المجتمع. . وأن مجموعة هذه الدوائر الإشراقية المتشرة والمترابطة بينها وبين بعضها البعض وشائج متينة تجعل منها ذلك البنيان المرصوص الخاص بالمسلم للمسلم. . وأصبح هنالك الوحدة. . والتكامل. . والإشراق. . والترابط. . والانتشار. خمس نقاط من إيحاء صورة من صور الفن الإسلامى تعبر عن ضميره وتنبثق من فقه الحياة فى نور الإسلام لأن الحياة فى نور الإسلام هى التى تتجه إلى الله وتتلقى منه.

يعتمد الفكر الإسلامى على أساسيات ثلاثة : القرآن. . والنبى. . والتابعين. والتابعون تحت مظلة النبى. والنبى تحت مظلة القرآن. وهناك الطبيعة وهى القرآن المرئى التى يوجه إليها النظر باستمرار فى القرآن المكتوب أولو الألباب ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك..﴾.

الدعوة إلى النظر والتفكر فى خلق السماوات والأرض هى توجيه إلى هذا القرآن المرئى الذى لا يحتاج إلى لغة، وعلينا ألا ننسى هذا المرجع من مراجع الإسلام.

تعالوا نر معا هذا القرآن المرئى. . ونحن نعلم أنه ﴿ما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ وكلما ازداد علمنا أدركنا معنى ما أوتيتم من العلم إلا قليلا. وفى نفس الوقت ندرك إلى أى حد لم يخلق هذا العالم عبثا، أو صدفة أو مجرد آلة. بل إن فيه وحدة وفيه تكامل .

ولندرك هذا التكامل نتأمل ذلك المثل البسيط، والذى يتكرر بين كل من يريد أن يستشهد على الترابط الموجود بين المخلوقات:

هل يمكن لعالم الحيوان أن يعيش بدون عالم النبات؟ لا يمكن.

وهل يمكن لعالم النبات أن يعيش بدون عالم الجماد؟ ودون الماء. والعناصر؟ لا إذن فعالم العناصر مرتبط بعالم النبات ترابطا تكامليا، والنبات مرتبط بالحيوان ترابطا تكامليا، ثم يأتى الإنسان ليرتبط بالجميع فى النهاية. . حتى إنه - أى جسم الإنسان لا يمكنه أن يستقل عن الجو من حوله، لدرجة أننا حين نرسل اليوم إنسانا خارج نطاق الكرة الأرضية، نضطر إلى عمل التكييف اللازم له والمضاهى لما فى الكرة الأرضية. لأنه هنا متكامل مع الطبيعة من حوله ومتوحد معها.

لو أننا فعلا تتبعنا هذا . .

وقد سبق أن تتبعنا إلى حدما حين كنا نتحدث فى عالم الطفل وقلنا إننا إذا كنا نريد أن نعنى ونهتم بأطفالنا للقرن الـ٢١ فلا بد أن نزودهم بما يمكن أن يتيح لهم رؤية فى معنى الوجود مستقبلا وزكينا ثلاثة مراجع علمية هى « العودة إلى الإيمان» تأليف هنرى لنك وترجمة الدكتور «ثروت عكاشة» ويحكى كيف أنه - أى المؤلف -

كان غير مؤمن بالدين ولكن حدث فى أثناء خبرته فى الحياة وخبرته مع المرضى النفسيين الذين كان يعالجهم أن وجد أن العلم يدعو للإيمان ويشرح الأسباب.

الكتاب الثانى وهو «العلم يدعو للإيمان» تأليف أ. كريس موريسون وترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى وقدم له الدكتور أحمد زكى من الناحية العلمية والأستاذ الباقورى من الناحية الدينية.

أما الكتاب الثالث فهو «الله يتجلى فى عصر العلم» وبه حوالى ٣٠ من العلماء من اختصاصات مختلفة عادوا إلى الدين، ويحكى كل منهم كيف رأى أن الدين فى صميمه لا يتنافى مع العلم، بل إن العلم يدعو إلى الرؤية الدينية.

من التدبر فى كتابات هؤلاء العلماء يدرك الإنسان أنه لم يكن من الممكن للصدفة أن تعمل سلسلة الظروف العجيبة المتوافرة على هذا الكوكب لكى يوجد الإنسان؛ فبين أشراط وجود الإنسان وتكوين الكوكب الأرضى ما يدعو الفكر الرشيد أن ينفى جانبا فكرة الصدفة، ويدرك أن هناك قصدا وغرضا من وجود الإنسان فى هذا المكان، الله أعلم بمراده وغرضه، ولكنا نعلم أنه كما جاء فى القرآن ﴿وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون﴾

من المنطق الذى سقناه فى بداية الحديث، وقلنا فيه: إن الإنسان إذا تكامل جسما ونفسا أصبح من السهل عليه أن يدرك ويرى الله قلبيا، فإذا رآه قلبيا انجذب إلى التحرك بهديه والسير نحوه. من هذا المنطق يصبح مرجع القرآن المرئى، كالقرآن المكتوب، وهو عمل فنى إلهى عظيم، كسلوك كبار المسلمين وعلى رأسهم النبى، من الأساسيات لتفهم الفن الإسلامى، وأريد أن أقول الفن المسلم. وأنا أفرق بين الفن الإسلامى والفن المسلم.

فالفن الإسلامى قد يصنع فى أى عصر
إسلامى فيسمى فنا إسلاميا وقد
لا تتحق فيه الفكرة الإسلامية وهى
العمل بهدى الله. أما الفن المسلم فهو
المصنوع فعلا بالهداية الإلهية الكبرى

فليس حتما أن يعمل كل فنان فى العصور الإسلامية من أفق الرؤية الإسلامية، بل يمكننا أن نقول إن هذا كان قاصرا على الأساتذة الكبار فى الصنعة ـ وكلمة الصنعة ليست كلمة صغيرة فإنه يقال «صنع الله الذى أتقن كل شيء» هذه صنعة ـ ففن مسلم غير فن إسلامى.

لكى أشرح فكرة التكامل أكثر.. أقول إنى أعتبر فكرة التكامل فكرة أساسية ومن حقها أن تكون موضوع دراسات متعددة، لوجود درجات متعددة من التكامل. لكن التكامل المطلوب للرؤية الإسلامية نوعية خاصة: لنأخذ مثلا التكامل على مستوى الصحة البدنية فإن أى ألم فى أى عضو من أعضاء جسمى هو تنبيه إلى أن هذا العضو المتألم غير متكامل مع باقى أعضاء جسمى.. الألم ينبهنى إلى الخروج عن التوافق والانسجام الذى يعمل به كل عضو مع باقى الأعضاء، حيث لا يعمل منها أحد لحسابه الخاص، بل لتمام صحة الجسم ككل.

كذلك إذا وجد لاعب كرة ممتاز فإن كل جوارحه تتكامل حول محور تخطيط أرض الملعب، والهدف، وأفراد الفريق، ويتحرك بلباقة ولياقة ليحقق الهدف. فإذا كانت الغاية ليست إصابة الهدف بل الوصول إلى الله فإن الجوارح تتحرك بتوجيه آخر ولغرض آخر، إن ما يحدث للاعب الكرة هو تكامل جزئى فى حركات رجليه، بينما لو أعطينا لنفس هذا اللاعب مضربا لكرة التنس وتغيرت أمامه قوانين اللعبة فقد نضحك عليه كثيرا وهو يلعب التنس بعكس ما كنا نصفق له وهو يلعب كرة القدم لأن التكامل هنا مرتبط باللعبة وهو تكامل جزئى.. وهكذا.

والتكامل المطلوب للنفس البشرية وهو ما قلنا إنه هدف تربوى مطلوب هو وظيفة المربين الذين لا يدركون خطورتها جيدا فهى وظيفة صياغة النفوس. وصياغة النفوس أهم من صياغة الذهب.

وهنا تظهر فكرة الشيخ الذى يساعد مريده على أن يتكامل قلبا وقالبا، ضميرا وجوارح وغرائز وفكرا وقلبا، وتتكامل حركاته كلها حول محور واحد هو الله.

فإذا تمت هذه العملية: عملية التكامل، تظهر خمس نتائج هى بيت القصيد فى حديثنا اليوم:

١ ـ إذا تكامل الإنسان بمجموعه، وتأمل الخلق داخل نفسه وفى الآفاق يمر فى تجربة دينية هى الحنين إلى رؤية الله عيان القلب والشوق إلى العمل المتقن بهديه . . أى عملية محبة يسمونها العشق الإلهى .

أنا أشرح الإسلام دون الاعتماد على مسلمات بل بقضايا ممكن مناقشتها على مستوى خارج المسلمات الإسلامية الصرف . وهذا ما أطالب به : النظر إلى الديانة الإسلامية وتقديمها إلى المسلمين وغير المسلمين من هذه الزاوية ؛ لأننا فى هذه الحال نمسك الأمور من جذورها وأصولها ثم نفهم بعد ذلك الشرائع والشعائر والحكمة فيها قدر المستطاع .

إن أول ما يحدث نتيجة التكامل أى اجتماع القلب والجوارح والغرائز والفكر وتجلى حقيقة الحقائق للجوارح كلها والانجذاب إليها والرغبة فى العمل بهدى منها أوليا يحدث رؤية للمقدس فى كل شىء تكون نتيجته التعلق بالسماء . ويمكننا أن نعتبر أن الدوائر الإشرافية تعبير عن التعلق بالسماء . والسماء ما هو أسمى . . ما هو أعلى ، فإذا توجه إلى مركز النور فهو يتجه نحو السماء حبا . . وكثير جدا من الأعمال الفنية الإسلامية يمكن أن تفهمها فى ضوء هذا الشوق إلى السماء : المآذن . . الشرفات . . الجوامع . . فالإنسان المسلم حقيقة هو كما يقول «الغزالى» ـ من «يمشى على الأرض وقلبه معلق بالمحل الأعلى» أى متعلق حبا بالله ويتصرف من هذا الأفق ، لأنه يشعر فعلا أن هذه الدنيا ، دنيا ، أى عالم أسفل ، وهناك عالم آخر . . كيان أعلى وهذا الكيان الأعلى له جوه . وجوه هو جو القداسة وحين نقول إن كل شىء يسبح الله نعنى أن كل شىء إذا تأملته بالقلب المجتمع ينقلك من الواقع الأرضى السفلى إلى الأشرف والأعلى .

والأشرف من الشرف . والشرف من الأرض أى المكان العالى ولكن الإنسان لم يقف فى اللغة عند المادى بل انتقل من المادى للمعنوى ومن هذا إلى ما هو أعلى إلى العالم العلوى القدسى .

هذه هى النتيجة الأولى وقد تأثر بها الفن الإسلامى أساسا .

٢ ـ حين يرى الإنسان هذا ينكر العبثية فلا يتساءل لماذا خلق ، أو لماذا خلق الله هذه الأشياء غير الجميلة فى نظره أو ما فائدة هذا فى الكون ، لأنه سيدرك أنه لم يؤت من العلم إلا قليلا وأن ما يبدو له من العالم عبث هو كون . . وكون

عكسي عماء . . الكون تنتسب فيه الأشياء بعضها لبعض لغرض، ولحكمة . وينشأ من هذا - في الفن الإسلامي - الترابط : حب البناء بمعانيه وسأقف عند معانيه التشكيلية وأترك معانيه الأخرى لأحاديث قادمة البناء يعني أننا نضع طوبة ليتماسك الكل مكونا شيئا أكبر .

روح الفن الإسلامي فيما جل وما دق

هو روح هذا المعمار . . هذا البنيان . .

هذا الترابط الوثيق . . التماسك العجيب

هو رؤية الكون مكان العماء .

٣ - إنه لا يغتر بالبصر؛ أي لا تقتصر الحقيقة عنده على ما يراه بعينيه فقط، فهناك ما هو أعمق من البصر، هناك البصيرة .

والفن الإسلامي - حتى حين يتعامل مع المرئيات - لا يلتزم بالرؤية البصرية لأن نظرته أصبحت البصيرة فيها أهم من البصر .

٤ - العزوف عن الهوى والالتجاء إلى الحق : يقول القرآن «والشعراء يتبعهم الغاوون . .» ونستغرب ونتساءل هل القرآن ضد الشعر . ونقول بل الشعر الذي ينطلق من الهوى . أما الإنسان الذي رأى حقيقة الحقائق وانجذب إليها وأراد أن يعمل بهديها لا يجذبه بريق الخيال الضليل ولا الزخرف الضال إنما يكون وراء الحق .

ليس كل شاعر طبعا ولا كل فنان ينطلقان من الهوى «فابن الفارض» مثلا خير مثال لشاعر يعمل بهدى من الله .

٥ - قلت هناك فن إسلامي وفن مسلم . ومثال الفن المسلم في الشعر «ابن الفارض» وفي البناء جامع ؛ كجامع «السلطان حسن» أو أي رائعة كبيرة من الروائع التي رأيناها سويا وتذكرون حين كنا في جامع «السلطان حسن» ودخل بعض الريفيين للزيارة كانوا يظنون أن الجن هم الذين كانوا يبنون هذا الجامع وهو إحساس صادق إلى حد ما ؛ لأن الإنسان أمام مثل هذه الأعمال يشعر أنها أكبر من الإنسان فهي عمل بهداية الله . فالنقطة الخامسة والأخيرة هي رؤية اللامحدود أينما توجه البصر .

هذه النقاط الخمس متحققة فى منجزات الفن المسلم الذى صنع فعلا من ضمير الإسلام. وهى التى إذا عملوا بهديها مستقبلا ستصنع مستقبل الفن الإسلامى.

اختم الحديث بتساؤل. لماذا جاء هذا الفكر الإسلامى فى هذا الوقت من التاريخ ولم يأت مثلا أيام الفراعنة أو قبل ذلك؟

يقول القرآن﴿ **إنا أرسلناك بشيرا ونذيرا**﴾ و﴿ **إن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾ : أى أن الفراعنة وغيرهم وغيرهم كان فيهم من يرشدهم للحق ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد للمرحلة الممكن أن يتلقوا فيها الإسلام : مرحلة الفطرة فنحن نظن أن الإنسان فى العصر الحجرى كان إنسانا فطريا بينما هو فى الحقيقة لم يكن كذلك بل كان إنسانا لم تتحقق فطرته بعد فكان لابد أن يمر بالمرحلة البدائية ثم يرتقى للمرحلة الحضارية ؛ ليعد بعد ذلك لتلقى الديانة السماوية. وقبل ذلك كانت مراحل على الطريق مراحل تحضيرية. ومازالت البشرية اليوم

على درجات فى الوعى

بعضها فوق بعض

بل مازالت البدائية والوثنية و الجاهلية

رغم العلم المعاصر الرائع

لأنه علم الوسائل

ورغم التقنية الرائعة

ولكن المطلوب

لكى لا يساء استخدام التقنية

هو إدراك الغاية

من وجود الإنسان.

٨ ـ البناء واللامحدودية

تكلمنا فى الحديث السابق عن خمس نقاط تتكلم اليوم عن اثنتين منها هما البناء واللامحدودية. وأبدأ بالبناء.

رأيت اليوم بعد دخولى المتحف وأنا فى طريقى إلى هنا حيث نجتمع صندوقا معدنيا فى إحدى الخزائن . . الصندوق صغير ولكن يخيل إليك حين تراه أنه قلب مسلم أدرك . . أُذكِّر بأننا قلنا إن المسلم هو من أدرك معنى وجوده ووجود الله . . والقلب عندما يسلم يتحول هو نفسه إلى بنيان أى بدل أن يكون بداخله عماء يصبح بداخله بناء . . كون . . نظام محكم . . متآزر مترابط متكامل . . والفن عبارة عن صورة للقلب .

فإذا أردت أن ترى تاريخ القلوب البشرية .

فطف العالم وتأمل روائع إنتاج البشرية . .

تجد القلب الهندى والقلب المسيحى والقلب

المسلم، وقلوب البشرية كلها تجد صورها

مُشكَّلة فى مادة . . فالفن تعبير عن مكنون هذه القلوب .

فهذا الصندوق الصغير بما فيه من نظام عجيب بنيان محكم شأنه شأن أى صرح من الصروح الإسلامية الكبيرة .

وفى كتاب إنجليزى مصور بالألوان، عمائر إسلامية عظيمة من أنحاء الأرض . الكتاب جميل جدا، ولا أدرى إن كان من سوء الحظ أو من حسن الحظ، أنه لم يمثِّل عمائر مصر بما تستحقه، فعمائر مصر حولنا؛ أى أنه يرينا ما ليس عندنا، بل هو يكمل لنا الفكرة عن العمارة الإسلامية . . نجد فيه أنواعا عجيبة من العمارة، تختلف تماما عما لدينا فى القاهرة . ومع علمنا أن القاهرة أكبر عاصمة إسلامية إلا أن العمائر المصورة فى الكتاب، من فارس، وتركيا، ومن الهند، ومن منطقة طشقند، عمائر عظيمة حقا؛ ففيها معنى البنيان ليس بمعنى مجرد نظام، بل بنظام فيه التماسك والترابط والتآزر الشديد والذى يعتبر صورة للقلب البشرى الذى تم توافق عجيب بين أجزائه بعضها البعض الأمر المطلوب ليتحقق وجوده كإنسان .

هذا البنيان ليس موجودا فى الصندوق الصغير فقط ولا فى العمارة وحدها بل هو أيضا فى الإناء سواء كان إناء من الزجاج أو من النحاس . وهو أيضا فى قطعة النسيج . . فإن فيها معنى البنيان الحقيقى؛ لأن البناء الذى ينعكس فى العمل الفنى هو صورة من البناء الذى يدركه الإنسان من الكون، وصورة من البناء الذى يحصله الإنسان فى نفسه فى طريقه إلى السلام .

وبذلك أصبحت الأعمال الفنية الإسلامية

التى تتحقق فيها هذه الأنظمة عبارة

عن رموز؛ لأن الرؤية الإسلامية

لا تحاول أن تعتمد على البصر فقط، بل هى

تعتمد على البصيرة أساسا.

فهو لا يصور الكون بالأجرام السماوية فيه، والحيوانات، والنباتات وغيرها كما هى، بل يصورها عن طريق الرمز.. وهو حين يستخدم الخطوط المستقيمة.. والمنحنية الهندسية.. أو حين يرسم تلك التفريعات النباتية، فهو يعبر عن طريق الرمز.

الفنون الأوروبية ترسم صورة لمنظر طبيعى أو صورة لوجه شخص..

ولكن الفن الإسلامى يعمل رمزا..

رمزا للقلب المؤمن.. ولرؤية الإنسان

للكون كما يراه قلبيا.

والإحساس الذى تعطيه القطعة الفنية الإسلامية الممتازة حقا تشع إحساسا بالقدسية، التى أشرنا إلى تذوقك شيئا منها إذا تأملت يوما السماء بنجومها.. أو خرجت إلى أعماق الصحراء.. أو ذهبت وسط الغابات الكثيفة.. أو عندى فى وسط النخيل الكثيف.. أو وأنت تتأمل ـ داخل الميكروسكوب ـ أى كون من الأكوان التى صنعها الله.

فالإنسان يعمل العمل ليحكم بنيان نفسه وليصبح العمل نفسه مصدر إشعاع، ومصور دعوة لمن يتأمله أن يتحد به لتنتظم نفسه، ويصبح كيانه واحدا مع العمل، فتوقظ القيم المتحققة فى ذلك العمل الرغبة فى أن تتحقق فى كيانه هو.

والعمل الفنى منظار نرى به الحياة. وهناك آلاف النظارات غير المرئية نحصلها بتأملنا كل روائع العالم فى التشكيل: فى الهند والصين ومصر القديمة والعصور الوسطى وغيرها؛

أى أنى أرى الكون بحكم ثقافتى

التى حصلتها بفضل الأعمال التى استوعبتها،
وتكشَّف لى من خلالها وبفضلها ما فى الكون
من مكنونات مستورة.
والفن الإسلامى يريك الكون حسب الرؤية الإسلامية.

بينما حين تقف فى وسط كاتدرائية «شارتر» مثلا فى فرنسا فإن الوجد المسيحى والشوق إلى الله والتجرد من الأرض والرغبة فى الصعود إليه هى الأحاسيس المسيطرة...

كما يمكن أن تتحول إلى فيلسوف إغريقى عندما تتأمل إناء إغريقيا ممتازا؛ فإن إحكام الذهن، والهندسة المتحققة فى الإناء، موجودان فى نظم الفلسفة الإغريقية..

كذلك أمام العمارة الهندوكية بملايين الآلهة المنحوتة خارجها وداخلها، يتذكر الإنسان كلام البيرونى عنهم؛ حيث وجد أنهم يبررون معنى هذه الأوثان باعتبارها مجرد وسيلة للتقرب من الله.

ما أريد أن أوضحه هو أننا نرتفع مع الأعمال الفنية العظيمة ..

ونهبط بأنفسنا وبالعالم أمام الأعمال الفنية الهابطة التى تحط من قدر الرؤية.

وهنا أهمية التربية الفنية باعتبار أن الأعمال الفنية ليست محفوظات أعرفها وأكررها ولا هى مجرد زينة، إنما هى توعية وتنمية للوجود الإنسانى.

فإذا تساءل سائل عن الفن الإسلامى وأخذه من الفنون الأخرى فلا تنف هذا. فمن من الناس أصحاب الخلاقية الحقيقية والقيمة الحقيقية يحب أن يستقل بنفسه، ويتباهى بأنه ليس مدينا لأحد، وأنه لم يأخذ عن أحد شيئا!! إنه حينئذ إما مجنون أو ساذج.

ولكن المسألة ليست مجرد الأخذ بل بما صنعته بما أخذته.

فإذا أخذته وغيرته، وأضفت إليه وبنيت منه بناء جديدا، فقد قمت بالواجب عليك

فأصالة الفنون الإسلامية تأتى من أنها أعطت

رؤية جديدة مستفادة من كل الخبرات القديمة

وأعطت وحدة فى الرؤية بمعنى الإنسان،

ومعنى الكون، والسر الماوراء، وعلاقة كل

هذه ببعضها البعض. وكلها فى النهاية تشع القدسية

الممكن أن يتجلى بها الله علينا من الجلال والكمال والجمال.

فالإسلام يشتغل بهذه القيم عن طريق الوسائل المختصرة البسيطة التى لجأ إليها والتى وجد أنه من الضرورى أن يلتزم بها.. وهى التجريد.

فكونه ﴿ليس كمثله شيء﴾ جعله ينأى عن الصورة.

فنحن نعجز عن إدراكه. وكل ما يمكن أن تتصف به المخلوقات، تعالى سبحانه جل جلاله وعلا عليها.

فالتجريد فى الإسلام ليس بسبب تحريم الصورة،

بل لعدم كفاية الصورة لتحقيق الغرض منها.

البنيان نجده فى الفنون الإسلامية بلا استثناء. حتى فى الكتابة العربية..

بل فى كل حرف على حدة.. بل فى أجزاء الحرف الواحد، وليس فى كل سطر أو فى كل صفحة. فإن روح البناء هى روح الفن الإسلامى.

النقطة الثانية فى الحديث هى عن اللامحدودية:

هذا البنيـان الإســلامى الموجــود فى الحــرف. وفى السطر.. وفى الإناء.. والمصباح وفى الجامع. والمدينة، يشع اللامحدودية.

يتهم البعض الفن الإسلامى بعدم البساطة لاحتشاده بالتفاصيل..

والعصر الحديث يريد البساطة.

ولكن البساطة القيمة هى الوحدة:

فإذا أصبحت واحدا، وأدركت الكون كواحد،

وعرفت أنه لا إله إلا الله فقد أصبحت بسيطا وعميقا ورهيبا.

ومن هنا بساطة الإسلام وروعته

فمعنى بساطة الإسلام هو إدراك الوحدة وأنها أصل الكل.

أما التفاصيل فهى للإيحاء باللامحدودية.

ولو أنكم رأيتم، فى جريدة الأهرام فى يوم ما صورة ضرس الإنسان مكبرة خمس وعشرين ألف مرة لشعرتم باللامحدودية.

وإذا بحثت عن عدد خلايا الجسم وسألت علماء البيولوجى تدرك اللامحدودية..

وإذا أدركت الطاقة المحبوسة داخل الذرة فأنت تدرك اللامحدودية..

وإذا تأملت السماء وعرفت أنها مكونة من السدم التى لم نعرف عددها حتى اليوم لأدركت اللامحدودية..

اللامحدودية تحيط بنا وداخلنا بلا حصر،

وهى فى ذاتها ضعيفة وضئيلة وصغيرة بجانب

اللامحدودية الأشمل لامحدودية القدسية،

والبناء واللامحدودية هما جناحا الفن الإسلامى الكبيران والقادران

ـ إذا تملكتهما ـ أن يرفعاك

إلى الآفاق

العلى

٩ـ الصبر فى الفنون الإسلامية

مازال موضوعنا هو «الفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها».

وأريد أن أقدم شرحا بسيطا لمحور أحاديثنا هذا العام.

أشياء كثيرة نأخذها كمسلمات: يعنى نحن نسلم بأننا موجودون فى مصر مثلا.. وكلنا يعرف أن فرصة مصر سياحيا ـ كبلد سياحى ـ ممكن أن تكون الفرصة الأولى على المستوى العالمى. كلنا نكرر هذا الكلام كذلك تكرره الجرائد ووسائل الإعلام. ولو أن أحدا سألنا لماذا؟ لقلنا للآثار.

فما هى فكرتنا عن الآثار؟ وما أهميتها؟ ولماذا يهتم الناس بالآثار؟

لو صارحنا أنفسنا قد لا نعرف الإجابة. ومع ذلك فقد نسأل أنفسنا، لماذا نهتم بالآثار؟ ولماذا يهتم بها العالم كله؟ ولماذا كان حظ مصر من الآثار وافرا؟ وليست الآثار الفرعونية فقط، بل إنهم ليقولون إن الآثار الفرعونية ظلمت الآثار الإسلامية؛ لأنه حتى لو لم توجد الآثار الفرعونية فى مصر، لكانت مصر أيضا بلدا مهما سياحيا؛ لما فيها من آثار إسلامية إلا أن السمعة الكبيرة للآثار الفرعونية طغت على الآثار الإسلامية كما لو وُجدت عائلة كلها نوابغ، وأحدهم نابغ جدا.. فالكل نوابغ بالمقياس العام ولكنهم بالنسبة لأخيهم الأنبغ مظلومون دون ظلم مقصود.

نعود لسؤالنا:

لماذا تعتبر آثار مصر مهمة؟

لأن الآثار عبارة عن حصيلة تجربة، اشتركت فيها أجيال عديدة من البشر على هذه الرقعة من الأرض.

أى هى حصيلة تجربة.. أو حصاد تجربة، تمت فى مصر، لآلاف السنين، حتى من قبل الفراعنة.

هذه التجربة كانت مهمة جدا؛ لأن الإنسان تمكن فيها من أن يرفع نفسه من البدائية ومن حياة بربرية، بمعنى ضد حضارية.

وليس من الضرورى أن يكون العنف سمة البدائية.

أما البربرية فالعنف سمة من سماتها.

وقد يكون الإنسان بربريا مع نفسه؛ أى يعاملها بعنف، وليس بلطف وبرفق ففى هذا البلد - مصر - أمكن للناس - فى التجربة التى تمت فيها - لأول مرة أن ترفع النفس الإنسانية نفسها من البدائية ومن البربرية إلى أفق الحضارة أى إلى مستوى من الوجود أكثر لياقة لمعنى الإنسان.

وهى تجربة مهمة جدا.

ولم يقم بها الناس عمدا، بل حسب دفعة فطرتهم البشرية لهم.

فإن الإنسان حين يتفقه ويجاهد نفسه

يمكن أن يحقق فطرته البشرية

لأن كل أبطال البشرية هم الذين يعبرون

جيدا عن فطرة الإنسان؛

كل العلماء الكبار . . كل الفنانين الكبار . .

كل المصلحين الكبار . . وكل القديسين . .

كل الناس الذين نعتبرهم أناسا بمعنى الكلمة يعبرون عن الفطرة البشرية كل فى جانب من جوانبها .

ونحن فى عامة حديثنا حين نستنكر أحدا ، نقول : هل هو بنى آدم؟ إنه صورة بنى آدم واسم بنى أدم ، ولكن حقيقة بنى آدم لم تتحقق فيه بعد .

يقول الغزالى :

هل يمكنك أن ترى النخلة فى نواة البلح؟ لا .

ومع ذلك فكل نواة داخلها جنين نخلة .

فهل يمكننى أن أقول إن النواة فيها فطرة النخلة؟ نعم . . ولا .

نعم باعتبارها فيها بالقوة وليس بالفعل . .

ماذا نعنى بالقوة؟ أى فى الإمكان إذا زرعنا النواة فى المكان الصحيح ورعيناها حتى تصبح نخلة ففطرتها حينئذ قد تحققت ، رغم أن شكل النواة لا يوحى بشكل نخلة ، ولا أثر فيها للسعف . أو السباطة أو حتى البلحة ؛

أما إذا لم تثمر النخلة بلحا ففطرتها لم تتحقق إلى حد ما ؛ لأنها لا تتحقق حتى تؤتى أكلها . أى تثمر وتعطى .

كذلك الإنسان ، يولد وفطرته مكنونة فيه بالقوة وليس بالفعل والإنسان فى العصور الأولى فيه إمكانية تحقق فطرته . ولكنها لا تحقق إلا حين يخرج من بدائيته ويتحاشى البربرية . وأول دخوله مرحلة الحضارة ، تبدأ فطرته فى التحقق .

وهنا يقترح «الغزالى» نقطتين :

داعى الدين .

وداعى الهوى .

ويعنى بذلك أن الإنسان حين يولد وينشأ نشأته الأولى يوجد بداخله دافعان : دافع الدين أى الطريق إلى الله . . ودافع الهوى، بالمعنى الذى يقول عنه القرآن «اتخذ إلهه هواه».

وأن هذين الدافعين يتنازعان داخل الإنسان.

والحمد لله ـ الذى لا يحمد على مكروه سواه كما يقولون ـ ففى العصر الحديث لا يتنازع الدافعان لأن دافع الهوى قد تغلب على دافع الدين؛ ففى الناحية الفنية فإن الإنتاج الحديث يعمل من دافع الهوى، إلا نادرا.

قد يوجد أناس مازال الدافع الدينى لديهم حيا . . هذا حق. ولكن . . فى الناحية الثقافية . . والتشكيلية بالذات ـ حسب ما أعرف ـ فإنه من أندر ما يمكن من يتبع الدافع الدينى.

تأملوا أى «إزم» فى المدارس الفنية المعاصرة بعامة، والتى تنتج من «المودات»، واسألوا أنفسكم، هل ما يحرك هذه، دافع الهوى؟ أو دافع الدين؟

وتأملوا أيضا فى التربية الفنية ـ وفينا بعض من أساتذة التربية الفنية ـ هل حين نربى، نراعى دافع الدين؟ أم دافع الهوى ؟ وأرجو أن نكون صريحين مع أنفسنا. لقد أصبح دافع الهوى مثلا أعلى للتربية؛ فنحن نريد للطالب أن يعمل على هواه ما يشاء كيف يشاء.

أما مثل الفنون المصرية القديمة، أو الإسلامية، فقد كان الدافع الدينى جزءا أساسيا. وكانت المدارس داخل الكنائس والمساجد؛ أى كانت التربية الدينية أساسا؛ حين يتعهد المربى الناشئ من الأول ويحاول أن يغلب فيه دافع الدين.

أنا لا أتكلم عن الدين باعتباره نصا عقائديا. ولا أتكلم عن دين معين . . إنما أتكلم عن الدين بعامة باعتباره طريقا للبحث عن الله. الله الذى هو حقيقة الحقائق.

فنحن حين نعلم ـ ولا أتكلم الآن عن الناحية الفنية بل العلمية ونريد أن نخرج علماء ـ فإننا بادئ ذى بدء قد نستبعد تماما حقيقة الحقائق لأنه ـ كما نتصور ـ خارج دائرة العلم. وإلا فلن يكون العالم عالما بالمعنى الحديث؛ حيث يريد أن يرى ويحس ويلمس ويمسك ويجرى تجارب ويزن ويقيس ـ فحينئذ نحن نمرنه أن يتبع جانبا لا

يمكنني أن أسميه جانب الهوى تماما . . ولكني أيضا لا يمكنني أن أسميه الدافع الديني وإن كان أقرب إلى الدين من النشاط الفني الحديث وذلك لموضوعيته.

والفني هنا بمعنى أدبي أو موسيقي أو مسرحي؛ أي النشاط الثقافي بعامة ينأى عن الوعي بأن الإنسان يقع إما تحت طائلة الهوى، أو يتبع الدين.

ولو خيرت لقلت إن عليه أن يسلك الطريق الصعب: طريق البحث عن حقيقة الحقائق . . حقيقة الوجود . . معنى كيانه كإنسان . . ومعنى الوجود من حوله.

ويجتمع فيّ - كإنسان - الناحية الفنية والناحية العلمية والناحية الدينية.

وبحكم نشأتي تمسكت بالثلاث. وأتكلم من هذا الأفق وأقول:

إننا كمربين ومصلحين اجتماعيين وعّينا أنفسنا بهذه الحقيقة: أن الإنسان لا يولد وفطرته محققة . . إنما هو كبذرة النبات يحتاج عناية معينة. إلا أن الفرق، أن نواة النخلة لا يمكنها أن تقتنع أن تنتج تفاحا مثلا - وهذا تشبيه الغزالي أيضا - أما الإنسان فيمكن أن يتبع الوازع الديني، أو وازع الهوى.

وإذا تكلمنا في الناحية العلمية: فالناحية العلمية بالمعنى الحديث وسائلية؛ لأن العلم هو دراسة الوسائل ولا يعطي غايات. هو في أسلوبه فيه رائحة الدين . . رائحة الغايات حين يطلب التنزه عن الهوى الذاتي ليبقى مع الحقائق العلمية التي يمكن إثباتها بلا تجن أو تعصب. فبهذا القدر هو أقرب للتربية الدينية ويتطلب رياضة نفسية بمعنى أنّ يقاوم الإنسان ويجاهد نفسه حتى توجد لديه نظرة علمية؛ فلا يغضب مثلا؛ لأن نتيجة التجربة كانت بشكل من الأشكال، لا يغضب حتى ولو كانت النتيجة تخالف ما يعتقد، مادام قد تبع أسلوب البرهنة، ووجد النتيجة أمينة . . فهو هنا يتعلم كعالم أن يطأطئ الرأس للحقيقة ويترك ما كان متمسكا به ومنسوبا إليه وكان معتزا به، إلى النتيجة الحقيقية التي جاءت بها التجربة.

فالناحية العلمية تتطلب نوعا من الرياضة النفسية ليصبح الإنسان عالما. وأقول، وغيري يقول، إن كبار العلماء الذين يتبحرون في تأمل الواقع ويحاولون أن يصبحوا موضوعيين ويدرسوا مناهجهم، يدركون أن الحقائق العلمية هي جزء من الحقائق الهامة. وإن كانت لا تحوي كل الحقائق الهامة.

فالعالم الكبير الواعي يعترف أنه لا يمكن العيش بالعلم فقط. فلديه أشياء كثيرة في ضمير حقيقة الإنسان وحقيقة الوجود لا يغطيها نشاطه كعالم.

أقول هذا لأن مدخلنا لحديث اليوم يتطلبه .

حديث اليوم موضوعه الصبر فى الفنون الإسلامية :

حين نستعرض الفنون العالمية بعامة نجد أن الفن الصينى . . والفن الهندى . . والفن الفرعونى والآشورى والإسلامى ، كلها ؛ واضح جدا أن الصبر جزء أساسى فيها .

فإذا تركنا هذه وذهبنا للفن الأوروبى بعامة ـ باستثناء الفن المسيحى وكثير من الشخصيات الفنية الممتازة ـ وللفن الحديث بالذات لوجدنا أن الصبر لا دخل له به إطلاقا . بل هو أبعد ما يكون . لماذا؟ أقول لأنه يتناسب طرديا مع الناحية الدينية ، وعكسيا مع ناحية الهوى .

فإذاكنت أريد هواى فلا أريد صبرا . ولماذا الصبر ؟

لذلك قلت إن النشاط العلمى فيه حظ من الناحية الدينية .

ومع ذلك فمن الجائز جدا أن يوجد الصبر . . فالصبر أنواع كثيرة جدا . . ألوان . فمن الجائز أن يكون هناك مجرم سيقوم بعمل جريمة ما لتحقق هواه ، هنا يكون لديه صبر عجيب ليحقق جريمته . وهنا أيضا يتضح أنه لا يمكنه الوصول لهواه البعيد دون شىء من الرياضة النفسية . شىء من الصبر .

أريد أن أقول إن الصبر ضد الإسفاف ، حتى إذا أردت أن تتبع هواك ولا تريد أن تسف فأنت محتاج لصبر .

هناك مثلا مدرستان معروفتان للفلسفة : الأبيقورية والرواقية . وينشد الاثنان السعادة . لكن المعروف عن الرواقية أنها تقول إن السعادة فى الفضيلة . والأبيقورية تريد اللذة . ولكن نتيجتهما بها تقارب شديد جدا لو نظرنا إليهما من علٍ .

فإذا راعيت الطريقة الأبيقورية الصحيحة لوجدت أنك تحتاج لرياضة وصبر لكى تحقق لذتك فى المدى البعيد . وإذا لم تراع ذلك ستنتهى اللذة بعد أيام وبسرعة .

فكان الصبر فى طبيعة الأشياء ، إذا أردنا للحياة ألا تسف وألا تنحدر بالإنسان إلى أسفل .

كنت ـ حين أدرّس لأولاد من سن ١٢ سنة إلى ٢٠ سنة ، أقول لهم إنى أريد أن أعلمهم نقطة أساسية فى الفن وأساسية فى الحياة هى الصبر .

لأنه لكى يكونوا آدميين فهم محتاجون لتعلم شىء من الصبر .

ففى الناحية الفنية كنت أحاول أن أعرض عليهم بعض الأعمال التى على الفنان أن يمارس حظا كبيرا جدا من الصبر حتى يصل فيها لهذه النتيجة مثل «ديورر» الفنان الألمانى .

والمدرسة الألمانية فى الفن بعامة ،

فيها القدرة على تحمل الآلام فى عملها

والدقة مطلوبة لكى يخرج هذا العمل .

فعند «ديورر» كنت أريهم صورة الأرنب أو الرجل العجوز الواضح فيه الشعر وتعاريق اليد وأشياء لا تتم بغير صبر .

والحقيقة أن هذا النوع من الصبر لا أحترمه كثيرا ولكنى كنت استعمله لأنبه الناشئين ، وضع أقدامهم على بداية عتبة طريق الصبر

وصبر كصبر«ديورر» سهل أن يراه كل إنسان .

إلا أن هناك فنانا حديثا ، لديه نوع من الصبر غير ظاهر على السطح هو «ماتيس» .

فحين ترى خط «ماتيس» ، تظنه مرسوما بمنتهى الطلاقة وكأن لاجهد وراءه أبدا . وأن الفنان لم يتعب فى عمل صورته . ولو رأى الناشئون فن «ماتيس» لما أدركوا الصبر فيه . بينما «ماتيس» كان يرسم بعض الصور . أكثر من أربعين مرة ليصل لهذه التلقائية الواضحة التى يظن من يرى صوره أنها قد لا تستغرق أكثر من نصف ساعة فى رسمها . فى الوقت الذى يبدو الصبر واضحا فى رسوم «ديورر» .

أريد أن أوضح لماذا يعانى «ماتيس» فى نشاطه هذه التجربة . ذلك أنه عندما يحرك الإنسان يده وفيها القلم . فيما يسمى «الرسم الحر» كما يسميه معلمو التربية الفنية ، وهذه التسميه خطأ ، فهى ليست «رسما حرا» إلا بالمعنى الذى يطلبون فيه من الطالب أن يعمل بحرية وبسرعة وأى شىء ، فهل هذا حر . إنه ليس حرّاً بل هوعبد لجهله وقصوره وعبد لآلية جسمه وغرائزه حتى يد «ماتيس» من الجائز أن تكون عبدة لذراعه وآليته وحركة يده وأصابعه ، فهو يحاول فى أثناء هذه التجربة

كلها أن ينقى خطه من كل حتمية آلية ويصفيها. هذه ناحية، والناحية الأخرى ينقيها من أسر العمل الرخيص.

إنه يعمل عملا جيدا.. جيدا فقط وليس رائعا.

ولكى أعمل الرائع لابد أن يكون عملى ضد الجيد السهل الرخيص.

فالإنسان الفنان يظل بينه وبين نفسه يصبر ليطلع سلالم القيم، حتى يصل لقمة ما يمكنه أن يصل إليه. وتعتبر يده هنا حرة حتى درجة نموه الفنى القيمى الذى يقدر عليه.

ولكن هذا لا ينطبق على الفنان التشكيلى فقط.

فالمصارع مثلا أو الملاكم، أو فى أى رياضة من الرياضات فهو يعانى الأمرين صبرا. كما يقول «إيكتتس» أستاذ الرواقية الكبير. إن المصارع يؤجر من يضربه حتى يربى عنده قدرة الاحتمال، لأنه يريد أن يتعلم كيف يقاومه. والمثل معروف «أننا نكتسب القوة التى نتغلب عليها».

هنا الصبر فى الحقيقة جزء أساسى.

إلا أنه صبر مر.

أما الصبر الذى سأتكلم عنه فى الفنون الإسلامية فهو صبر حلو.. حلو المذاق. وهذه هى النقطة الأساسية للحديث؛ لأنه بالإضافة إلى أنواع الصبر المر التى قد يحتاجها الفنان كإنسان فى بداية حياته، فهو يشرف فيما بعد عند النضج على أفق..

ويتطلع إلى رؤى.. هذه الرؤى، حين تتكشف أمامه، يهون فى سبيلها كل مجهود.. بحيث يبدو للناس العاديين كما لو كان هذا الإنسان يعانى الأمرين.

ويقولون «يا صبرك أنت مستمر فى عمل هذا الإناء.. أو هذه الصورة. أو هذا الرسم.. إنه يحتاج لصبر أيوب» بينما الفنان. فى هذه الحالة بينه وبين نفسه.. وهو يعيش التجربة من الداخل، لا يشعر أنه عانى الأمرين أو أى مشقة، بالعكس فقد كان محظوظا لأنه كان موصولا بقيم.. ومتطلعا إلى رؤى.. وتفيض عليه فيوضات، من نوعية لا يعرفها الآخرون.

وهذا سر الصبر الإسلامى.. والصبر فى الفنون الإسلامية.

وكذلك الحال فى الفنون المسيحية والصينية والهندية، وعند «رمبرانت» . .
و«مايكل أنجلو» . . و«ليوناردو دافنشى» . . والأبطال الكبار، فإنه إذا وجد بطل فى الموسيقى أو فى العلم أو فى الفن ووصل لدرجة كبيرة فإنه يتحول دون أن يشعر إلى إنسان متدين . . بحيث يوجد عنده نوع من الورع النفسى والزهد فى القيم الرخيصة، ذلك أنه يتعامل مع الحقيقة، وحقيقة الفن القيم . . وحقيقة العلم القوانين . فلابد له إذن أن يضبط نفسه ويضعها فى محاذاة هذه الحقائق الكبيرة حتى تتكشف له .

ويتلقى الفيوضات، لذلك يعتبر العمل نفسه هو المكافأة لايمكنك أن تكافئ عالما بنقود مهما أعطيته . إن استمراء لذة البحث التى تقال كمجرد «كليشيه» لابد أن تفهم كحقيقة؛ لأنه - فعلا - هناك لذة يمارسها الإنسان الذى يعمل فى مجال العلم بطريق غير آلى، والذى يعمل فى مجال الفن بطريق غير آلى، والذى يعمل فى أى ناحية من النواحى بطريق غير آلى، إنما بطريق إنسانى يستهدف أن يصعد العامل فى سلم القيم وتتكشف له من الرؤى أكثر وأكثر . . حينئذ فقط يستمرئ لذة البحث .

لأن لذة البحث تبدأ بما يتكشف له من سلطان على الذات حين يشعر أنه قد طلّع من كيانه هو ما هو أعلى من الهوى . هذه ناحية .

ثم، الحقائق الموضوعية، وهى الفيوضات من الواقع . من الحقيقة التى تتكشف له . هذا التكشف يعتبر جائزة له .

* * *

هناك نقطة أخرى أريد أن أؤكدها :

معروف عن الفن الإسلامى أنه فن هندسى، تلعب فيه الهندسة دورا كبيرا، سواء كانت الخطوط المستقيمة أو هندسة المنحنيات؛ أى هندسة نباتية وهندسة بللورية .

والحقيقة أن الضبطة الهندسية الآلية ليست من الفن الإسلامى فى شىء؛ فحين تعمل النجمة المضبوطة هندسيا، أعنى المضبوطة آليا، فهى ليست فنا إسلاميا؛ لأن ما يبدو لنا أنه ضبطة هندسية آلية فى الفن الإسلامى غير صحيح إلا حين يموت الفن الإسلامى، فتصبح هندسته آلية .

إن الهندسة فى الفن الإسلامى هندسة إنسانية.

وهى تمت فى الحقيقة إلى القدسية،

التى تحاول كل الفنون الكبرى فى النهاية أن تصل إليها.

حتى الطبيعة تحاول أن تصل إليها أيضا.

* فإذا حاول مرب وهو يعلِّم أحدا البصيرة فى الفنون الإسلامية أن يحاسبه على أساس أن هذا الجزء لا يماثل ذلك وأن اليمين لا يطابق الشمال، فلابد أن ينبه إلى أنه يعلم فى الطريق الخطأ.

فالضبطة الفنية غير الضبطة العلمية كما قلت. وهى أيضا غير الضبطة الآلية هذه واحدة. والثانية: أنه من الجائز جدا أن يوجد رسم كرسم «ماتيس» مثلا..

وبالمناسبة فإن «ماتيس» متأثر جدا بالفنون الإسلامية، خاصة المنمنمات.

والمنمنمات ليست الفارسية فقط، بل هناك المنمنمات فى مصر والعراق والمغرب وهناك التركى والهندى.

وكذلك رسوم الأطباق الخزفية المصرية المعروضة هنا فى المتحف تحس فيها بنفس الطعم الذى نلمح عند ماتيس شيئا منه.

فلو أخذت هذه الرسوم وحاولت أن تضبطها، فإنها تفسد لأن ضبطها فى عدم انضباطها الظاهر.

وهنا قد يأتى المدرس الذى لم يدرك سر ضبطتها فيقول إن اليمين لا يماثل الشمال مثلا.

كمن يريد أن يعمل قنديلا فيذهب للزجاج الشعبى الذى يعمل له قنديلا غير منضبط الجانبين الضبطة الآلية.

فإن كان طالب القنديل فنانا واعيا وحساسا، فإنه سيفرح بالقنديل. أما إن كان فنانا جاهلا فسيقول إنهم لم يعرفوا كيف يضبطون القنديل وسأذهب للمصنع لعمل واحد مضبوط فيه الجانبان الأيمن والأيسر، وتكون النتيجة قنديلا فاقد الروح.

علام يبحث الدافع الدينى؟

نذهب مرة أخرى للغزالى، يقول:

إن بالكيان البشرى أربعة مقومات. ويخطئ الكثيرون حين لا يعرفون كيف يفرقون بينها.

(ا) القلب: ولا تظن أنه القلب الذى تجرى به العمليات.

(ب) الروح.

(ج) العقل.

(د) النفس: ومنها النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة.

وهدف الفنون الدينية الكبيرة أن يشتغل الإنسان بقلبه، ويستخدم عقله، فى سبيل تحقيق روحه، وهنا فالنفس المطمئنة هى التى تعمل.

أما فى الفن الحديث فإن من تعمل هى النفس اللوامة، أو النفس الأمارة بالسوء ومن الجائز أن يستخدم عقله، ولكن روحه وقلبه تحت سيطرة نفسه الأمارة بالسوء أو نفسه اللوامة.

أنا لا أتكلم عن كل الفن.. إنما أضع يدى على نقاط تبرر مطالبتى برؤية جديدة فى علم النفس.

فحين ندرس علم النفس عند «فرويد» مثلا، يقول لنا عن «الإجو» و«الإد» و«السوبر إجو» وحين نبحث عن نشاط الدافع الدينى يقول لنا "فرويد" نفسه إن هذا الدين وهم. وإذا بنا أمام خريطة للنفس البشرية فى العصور الماضية كلها تبحث عنه وتبنيه وتدعمه.

لذلك أقول إن هذا التقسيم ينفع «فرويد» ولكنه لا ينفعنا، نريد تقسيما جديدا للنفس.

وأرجو من المربين والمعلمين المكلفين بإعطاء صورة للنفس للناشئين ألا يحذفوا منها الوعى بالقيم الروحية، والقيم الأخلاقية، والمقدس. وإلا فكيف يستنهض المربى هذه القيم من مشروع الإنسان؟!

هذه هى النقطة التى ألح عليها.

ولا أقول بالرجوع إلى تقسيم «الغزالى»، لأن تقسيم «الغزالى» يتبع عصره. ولكن يمكننا من تتبع نشاط البشر فى تاريخ البشرية أن نحدد مَنْ أساء، ومَنْ

أحسن، أن نعرف شيئا عن تاريخ البشرية، وأن نحدد أى جانب من هذه الجوانب نريد أن نُغلّب.

أختم حديثى بنقطة عامة:

قلنا إن السر فى أصالة الفنون الإسلامية هو الرؤية الإسلامية لمعنى وجود الإنسان على هذه الأرض.. ولمعنى الكون.

إذن فما يستحق أن يكتب وأن يدرس فى كل تاريخ البشرية هو تاريخ الرؤى أى أن التاريخ الواجب أن يدرّس فى المعاهد العليا، سواء كانت أكاديمية الفنون أو كلية الآداب أو العمارة أو التربية الفنية هو تاريخ رؤى البشر للوجود ولمعنى الإنسان.. وما أنتجته هذه الرؤى من أعمال.

فحين نتكلم اليوم عن تاريخ البشرية يصبح من السهل جدا أن نقول عصر ما قبل الأسرات والعصرين الفرعونى والهيلينستى.. كما نقول حين ندرس الفن الأوروبى الفن الإغريقى والفن الرومانى والفن البيزنطى والنهضة وهكذا.

والحقيقة أننا بذلك نهمل الجزء الأساسى فى الموضوع.

لأننا ـ تحت تأثير النزوع الحديث ـ نهتم بالمرئى والمحسوس والملموس الظاهر. ونعتبر ما عدا الظاهر غيبيا ونلوم الشخص الذى يشغل نفسه بالغيبيات.

مع العلم أن الإنسان دون هذه الغيبيات لا يعتبر إنسانا.

فماذا تعنى غيبيات:

مثلا، معنى وجودى أنا، لا يمكننى أن ألمسه..

معنى وجود الإنسان فى عصر النهضة.

معنى وجود الإنسان اليونانى..

وفى حضارة الصين.. وفى الهند،

كل هذه معان متعددة ومختلفة عن بعضها اختلافا كبيرا.

رؤى مختلفة تماما، لابد أن تكون هى موضوع التركيز والدراسة.

وتذكرون أن موضوع أحاديث العام الماضى كان «فقه الحياة وفقه التشكيل الفنى» والارتباط واضح.

ففى الرؤى الإسلامية نلاحظ أننا نعيش اليوم فى البلاد الإسلامية مسلمين بالاسم والولادة، ولكنا مسلوبى الرؤية الإسلامية . . الرؤية الإسلامية لدينا لفظية بمعنى قول لا إله إلا الله. نعم. ولا أحد يقول بإله ثان غيره. ولكن - وكما قلت سابقا - إن الناس أغلبهم مسلمون بالاسم لأنهم يعبدون هواهم. لأن الرؤية المتحققة فى ضميرهم لمعنى لا إله إلا الله غير موجودة، وهى كلمة كبيرة جدا وليست سهلة : أن يسبح العالم كله حجره وشجره لله كما يقول القرآن، فهل هذا فعلا متحقق فى رؤيتنا للوجود . . حتى نرى الحجر ونرى النبات ونحقق هذا .

إذن رؤيتنا الإسلامية نسلم بها قولا ولكنا غير متحققين بها واقعا وفعلا . بينما أصالة الفنون الإسلامية من هذه الرؤى الإسلامية حين كانت قولا وحقيقة وفعلا .

وهى التى أعطت الفن الإسلامى طابعه المميز .

أما الأهمية فلأهمية هذه الرؤى لوجود الإنسان .

فهل الأصلح للإنسان أن يوجد وجانب الروح والقلب المتصل بحقيقة الحقائق الكبيرة نام ومنتعش وناضج . . أو مبتور ومكبوت ومخسوف .

أهمية الفنون الإسلامية والفنون الكبيرة كلها أنها تنبه إلى أن الوجود البشرى الجدير بالإنسان حقيقة هو ما فيه هذا العنصر القيمى منتعش وآخذ حقه من النمو كما ينبغى . . وكما يمكن، وأمكن، أن يوجد فى العصور التى أنتجت جامع السلطان حسن، وكاتدرائية شارتر، والهرم الأكبر . . وعملت كل روائع الموسيقى والمسرح وغيره من الفنون العظيمة حقيقة .

لأن الأعمال العظيمة حقيقة هى التى تحمل شيئا من وهج القدسية . ولا يمكن أن تصل للعظمة الحقيقية بدونها .

من زمن وأنا لا أعترف « بنابليون» مثلا ولا أعتبره عظيما، بل هو مجرم أقنع الجيوش أن تسطو معه وتقتل معه . ولكن الناس يعتبرونه عظيما . لماذا؟ لأن المقياس مختل .

لم يعد هو المقياس المطلوب .

نريد مقاييس جديدة ليوجد العصر الجديد .

ولكن المقاييس الجديدة لا يمكن أن توجد دون أن توجد الرؤى الجديدة .

١٠ ـ كيف نوطد الصداقة بيننا وبين الفنون الإسلامية؟

لقد أنهينا إلى هنا ما نود أن نقوله هذا العام فيما يختص بالفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها. ولكنى فى هذا الحديث العاشر أريد أن ألقى نوعا من نظرة شاملة من جهة، وفى الوقت نفسه تعتبر مكملة ليس من ناحية الفكر الخاص بكنه الأصالة وأين الأهمية، لكن من ناحية أساسية أخرى، هى كيف نوطد الصداقة بيننا وبين الفنون الإسلامية.

النظرة الشائعة للفنون تحت اسم التذوق الفنى هى ـ كما قلت مرارا ـ نظرة لا تقنعنا. إن مجرد التذوق عملية سلبية وقد يقدر عليها أناس مترفون وفى الوقت نفسه خليون بمعنى أن لا قضية لهم يعيشون من أجلها. ولكنا لسنا مترفين بالمعنى المادى ولا خليين لأن لدينا قضية أساسية هى أننا مسئولون تاريخيا عن حمل أمانة عصور سابقة تمتد آلاف السنين الطويلة والمتواصلة فى دنيا العالم القديم ابتداء من ظهور الحضارة، وهى حدث كبير جدا. كانت الحضارة الفرعونية فتحا عظيما على المستوى العالمى؛ لأنها لأول مرة يمكن للإنسان فيها أن يخرج من البدائية والبداوة والهمجية والبربرية ويؤكد القيم الحضارية.

والقيم الحضارية عندنا ليست كلمة غامضة بل إن مقاييسها مكونة من خمس نقاط كما أسلفنا هى:

علاقة الإنسان بالإنسان: أن يكون مصطلحا مع نفسه وفى علاقته مع الآخرين بمن فيهم الأحباء والأعداء.

علاقة الإنسان بالكون: وهل هو متفتح له أم رافض له وساخط عليه، متعاون معه أم ثائر عليه، يلوثه أم يحافظ على طهارته، يقدسه أم يعتبره آلة.

على هذا المحك أيضا تقاس الحضارة.

المبدأ الروحى: وهل هذا الوجود محوره مادى صرف أم هناك مبدأ روحى هو الأساس.

القيم الأخلاقية: وهل هناك مقاييس أخلاقية أم إن كل هذا وَهْمٌ؟

المعاد: وأخيرا هل الموت نهاية أم هو بداية لمرحلة جديدة هى المعاد إلى الأصل والمنبع؟

هذه هى محاور مقاييسنا وهى التى بنيت عليها الحضارة المصرية وعلى أساسها أيضا بنيت المسيحية والإسلام. وأعتبر المسيحية والإسلام اتجاها واحدا حقق أمل الحضارة الأولى الفرعونية العظيمة.

وأقول ـ ونحن نقيم اليوم متحفا جديدا يساعدنا اليونسكو والعالم على إنشائه يضم الحضارات المصرية مع بعضها ـ إن أملنا أن يظهر النقط الحساسة فى التاريخ:

فبدءا من الأسرة الأولى حتى الثالثة كان دخول تحضيرى للحضارة..

وفى الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وصلنا لذروة الحضارة الفرعونية..

أما قبل الأسرة الأولى فهناك مرحلة طويلة هى بمثابة إعداد للخروج من البدائية والدخول فى دنيا الحضارة تشف عنهما الآثار المرئية الملموسة الباقية من تراثنا.

فلو تمكنا ـ ونحن نعد هذا العرض لنا أولا وللعالم بعامة ـ أن نبين معنى الحضارة! لأن مصر تعنى الحضارة الأولى لألمحنا إلى أن هذه الحضارة تبدو واضحة على سيماهم.

ومعى بعض صور لتوضيح ما أعنى.

هذه صورة لتمثال رمسيس الثانى..

وأخرى من فنون ما بين النهرين،

وثالثة من الفن الحديث.

وبمقارنة الثلاثة، تنطق القيم الحضارية فى الفن المصرى بشكل عجيب، بينما هناك شىء من الفظاظة والنقص فى هذه القيم فى فن ما بين النهرين.. أما فى الفن الحديث فهناك «توهان» عن المحور الحضارى.

أما فى هذه الصور الآسيوية ففيها الناحية الدينية لكنا لا نقدر أن نعتبرها القيمة الحضارية بالمقاييس التى سبق أن أشرنا إليها.

وفى صورة الأمريكى البدائى تتضح البدائية.

ونحن لاندعى أن هناك مقياسا واحدا للحضارة، ولكن باعتبارنا مسئولين تاريخيا وورثة لخمسة أو ستة آلاف عام حضارة فى هذه المنطقة، فلابد أن يكون لنا وضع صريح مستشف من واقع سعينا عبر هذه الآلاف من السنين.

وهذه المحاور الخمسة التى أشرت إليها مرارا كمقاييس حضارية ترضى عنها الحضارة المصرية القديمة وترضى عنها المسيحية ويرضى عنها الإسلام. وفى تقديرنا نحن فإنه على هذه المحاور هناك الأمل للبشرية سواء كانت فى أوروبا أو أمريكا أو آسيا أو أى بلد آخر.

ومن الطبيعى أن توجد مقاييس أخرى لأقوام تتبع حضارات أخرى. ونحن لا نعرض رأيا إنما هى خلاصة سعينا واجتهادنا الحضارى.

فإذا عدنا إلى الفنون الإسلامية، ونحن نبحث الآن ـ وعلى مدى تسعة أحاديث ـ عن كنه أصالتها وسر أهميتها نقول ـ ونحن فى هذا المكان مصر ـ إننا لا يمكننا أن نكتفى بما حققته هذه الفنون هنا فى هذه الأرض إنما لابد أن نرى الفنون الإسلامية فى المشرق العربى الإسلامى وفى المغرب العربى الإسلامى أيضا. فباعتبارنا مسلمين ومن بناة الثقافة الإسلامية لا يمكننا أن نقف عند الحدود الجغرافية لمصر أو للبلاد العربية، إنما هناك وحدة بيننا وبين باقى البلاد التى شاركت فى بناء تلك الثقافة؛ وحدة ثقافية فى الفكر.

ففكرتنا عن الفنون الإسلامية لابد أن تشمل هذا البحر الزاخر من العطاء الفنى القيمى الذى جاد به الشرق الإسلامى وجاد به الغرب الإسلامى.

لذلك نأمل ـ فى أثناء إعادة تنسيق المتحف الإسلامى فى القاهرة ـ أن توجد قاعة يعرض بها عن طريق الصور الجميلة الكبيرة عمائر الشرق والغرب الإسلاميين؛ لأنه لاتتاح فرصة رؤية العمارة لكل الناس، فالسفر غير متاح للجميع.. ولكن عن طريق الصور الفوتوغرافية.. أو عن طريق الفيديو.. أو عن طريق الفيلم السينمائى التسجيلى يمكن التعرف على هذا العطاء، لأن الفن الإسلامى مثال لكيف تتحقق العالمية دون أن يكون هناك طغيان على الذاتية المحلية ولا الذاتية الفردية.

فإذا اطلعنا على أمثلة من الفن الإسلامى فى المغرب والمشرق، وعندنا هنا فى مصر، نجد أنها أخذت طابع الشخصية المصرية هنا.. وقد وجد ما يسمى بالمدرسة المصرية السورية ولكنى أركز الآن على المدرسة المصرية لوجود الأمثلة المحسوسة الملموسة التى يمكننا أن نراها.. إلى جانب أن الوفرة الكبيرة للعمائر فى مصر غير متوافرة بنفس القدر فى سوريا، وإن كان هذا القليل هناك يوضح الصلة بين الاثنين ويؤكد وجود مدرسة مصرية سورية فى الفن الإسلامى.

هذه الذاتية المصرية تتضح وضوح الشمس إذا أشرنا لناحيتى المشرق والمغرب:

فإذا ذهبنا للمغرب الإسلامى حتى الأندلس نجد الروح الإسلامية التى تتسق مع كل العطاء الإسلامى لكنها تتفرد باستخدام الجص والمواد الخفيفة ولها طابعها.

فإذا ذهبنا للمشرق الإسلامى نجد الطوب بدل الجص والكسوة الخزفية الملونة هى الطابع الغالب.

وهناك كتابة - دائما - فى الفنون الإسلامية لكنها فى المغرب الإسلامى لها غلبة نزوع هندسى بينما فى المشرق الإسلامى نزوعها الغالب نباتى فردوسى جنانى إزهارى وملون.

أما هنا فى المدرسة المصرية السورية، فنجد القيم الأساسية نحتية وهندسية يأتلف فيها المستقيم والمنحنى ولكنها فى صميمها تقتصد فى التفاصيل. بينما الغنى المكثر بلا حد فى المغرب الإسلامى واضح غير خاف، كما نراه فى الحمراء وقرطبة وغيرهما. لا محدودية فى الإثراء عن طريق تنويع أنظمة التشكيل الموجود، فمثلا بينما نجد العقد صريحا عندنا نجد فى جامع قرطبة مجموعة عقود يركب بعضها فوق البعض، وتتوالد بطريقة يعجز المنطق عن تبريرها، إلا أنها الرؤية الإسلامية المغربية. وفى الناحية المشرقية نرى الثراء اللونى سواء كان فى فارس أو فى الهند أو فى بلاد ما وراء النهر - التى تتبع الاتحاد السوفيتى حاليا - حتى ليخيل للرائى أنها عمارة تصويرية. وفى مصر تعتبر العمارة فنا نحتيا مادته الأساسية الحجر وفيها نفس السمت الزاهد بلا عبوسة، المتسامى فى شىء من لطف الفن المصرى الفرعونى القديم.

نحن فى أشد الحاجة - لكى نعرف أنفسنا جيدا - وأن نعرف الآخرين لندرك ما يربطنا بهم وما يميزنا عنهم. لأننا نعتبر أن الدليل الحضارى الجديد والنجم الذى سيهدى المركب الحضارية الجديدة هما الحرية.

والحرية - فى تقديرنا وكما قلنا - هى خلاقية متمركزة فى ذات.

فإذا حققنا ذاتنا القومية، وأتحنا لها حرية الخلق، فنحن نخدم أمل الحضارة الجديد: الحرية.

أريد أن أضيف نقطة هى أننا حين نتأمل الفن الحديث - الذى نعيش اليوم فى ظلاله والذى يعتبر ترجمان الحضارة الحديثة - وفنون البشرية بعامة، وفنون مصر

بخاصة، نجد أن الخلاف الأساسى بينها هو أن معظم حضارات البشرية السابقة لها طابع دينى، بينما الفن الحديث يكاد يكون مجردا من الطابع الدينى. . هناك بعض فنانين أنتجوا صورا لموضوعات دينية وبعض مهندسين معماريين شيدوا الجوامع والكنائس، إلا أن طابع العصر فى مجموعه ورؤيته الفنية بعيد عن الجانب الدينى.

وفى كتب تاريخ الفن الموجودة أو التى كانت موجودة بالمدارس الفنية هنا فى مصر حين يتكلمون عن الفن المصرى القديم يقولون إن الفنان كان خاضعا للكاهن ولم يكن حرا.

ونحن نقول إن الفنان فى مصر القديمة صحح أخطاء الكاهن فى الناحية الدينية.

ماذا يعنى هذا؟

إن الإنسان لا تكتمل إنسانيته إذا لم يكن لديه نصيب من المبدأ الروحى:

أى أن الإنسان الذى يعتبر أن العالم آلة وأن محورها الأساسى لا دخل فيه للمعنى الروحى والقيم الروحية، هو من زاويتنا إنسان مقيد غير حر. وفى الوقت نفسه نقول إن الكاهن فى مصر القديمة لم يكن يقيد حرية الفنان الفنية.

بل أنقذ الفنان المصرى الكاهن الفرعونى؛ لأن الديانة الفرعونية فى نصوصها لا تثير الإعجاب ولا احترام الإنسان المتحضر اليوم؛ لأنها مفاهيم وثنية تكاد تكون بدائية وقاصرة. . طبعا بها بعض الصلوات الممتازة بأى مقياس ولكنى أتحدث عن الغالب الأعم فيها. . أما فى الفن سواء كان نحتا أو عمارة أو تصويرا فإننا نجد الحس الدينى. . الوعى الدينى. . الوجدان الدينى حاضرا وبارزا وساميا بدرجة قد لا يمكن أن يتفوق عليها فى أى فن من الفنون؛ فإذا وقفت أمام «أبو الهول» أو أمام الهرم أو أمام الكرنك أو الدير البحرى أو أى رائعة من روائع الفن الفرعونى فإن الوعى الدينى الذى تفيض به تلك الأعمال لا يقل إطلاقا عن الوعى الدينى الذى تشعه أعمال الديانات العظيمة الأخرى التى جاءت من بعده.

لذلك أعتبر أن الفنان المصرى أنقذ الديانات الفرعونية من حدود الكاهن الفرعونى.

وبهذه المناسبة فإنى أقول إنه كما أن مصر لا يمكن أن تعيش بلا نيل فهى أيضا لا يمكن أن تعيش وتنتعش وتعطى بلا وعى دينى.

لذلك فإذا كنا نريد بناء حضارة جديدة،

فلابد من تجديد وعينا الدينى بمزيد

من التأمل العميق فى معطيات الدين.

ففى الفن المصرى القديم تعبير عن الخلود ليس بمعنى استمرارية فى الزمن بل بمعنى الخروج خارج الزمان والمكان ـ وهو أمر يستشعره كثيرون ممن يحجون إلى بيت الله الحرام ـ هذا هو الخلود الحقيقى. فالله هو وحده الخارج عن الزمان والمكان والفن الفرعونى من أكثر الفنون إيحاء بتلك الفروسية بينما النصوص قاصرة. امتياز آخر يحسب للحضارة المصرية ويمت إلى الناحية الدينية بسبب، هو المقياس الأخلاقى؛ فاعترافات الروح فى المحكمة الأخيرة أمام الميزان وفى الحساب الأخير تلمس جذور القانون الأخلاقى الذى دعته وأضافت إليه المسيحية والإسلام فيما بعد.. فكل الأخطاء التى من المفروض أن تبرئ الروح نفسها منها هى عبارة عن تأكيد لمبادئ القانون الأخلاقى الذى نعتبر أنه كان من حظ مصر أن ظهر فجره فيها من قبل الديانات السماوية التى نعرفها بآلاف السنين.

قلنا عن المبدأ الروحى..

والقانون الأخلاقى..

وفيما يختص بالمعاد، فقد رأوا العودة إلى الأصل من زمن بعيد..

وأما العلاقة بين الإنسان والكون التى تدعو لها الديانات العظيمة فهى أيضا جذورها فى مصر..

وعن علاقة الإنسان بالإنسان فقد كان قوامها «الماعت» أو العدالة الاجتماعية.

وحين نقول إن العالم غير المسلم يهتم اليوم بالفنون الإسلامية، فالسر فى ذلك قد يكون هو التشوق إلى ذلك العنصر الروحى الغائب، لذلك اهتموا بالفنون التى يعتبر المحور الأساسى لنشاطها هو دنيا الروح سواء كانت إسلامية أو صينية أو هندية أو حتى الفنون البدائية والزنجية. فالفن الزنجى عماده الأساسى روحى ولو أنهم فى دراستهم له يجردونه من الجانب الروحى ويكتفون منه بالجانب النظرى أى جانب الشكل المجرد والبناء التشكيلى الصرف.. الأمر الذى يدل على أن عالم

اليوم يشعر بنقص فى مقومات حياته المعاصرة . . نقص المقياس الخلقى والمبدأ الروحى الذى يعطى الإنسان معنى حياته والذى يتسبب غيابه فى قيام الحروب والاضطرابات العصبية للأشخاص خاصة الذين يهتمون بمسايرة «الموضات» فإنهم غالبا ما يعانون من القلق وعدم الاستقرار . . لذلك يقول بعض الناس إن القرن القادم سوف يكون محوره الأساسى هو الناحية الدينية .

ويهتم العالم بمصر ليس فقط لأنها بلد قديم وإن كان هذا جزءا من أسباب الاهتمام . . إنما السبب الرئيسى أنها البلد الذى اكتشف الحضارة لأول مرة فى التاريخ ووضع أسسها واستمر فيها عبر العصور وإلى اليوم بدون توقف . كما وجدت الديانتان السماويتان ؛ المسيحية والإسلام فى مصر بيئة خصبة حيث ازدهرتا ونمتا . وهو البلد الذى يبشر من وجهة نظرنا نحن أصدقاء الفن والحياة بمستقبل الحضارة أيضا .

ونحن نقول إن مستقبل الحضارة سيكون بالحرية التى «يتمسح» فيها الجميع ويحاربها الجميع ؛ فالحرية لا يمكن أن تعيش دون احترام لكيان الإنسان ، ودون تحقيق شخصية وذاتية لكل فرد من الأفراد .

الكل ينادى بشعار الحرية .

ونحن ننادى بفقه الحرية

والحرية لدينا هى خلاقية متمركزة فى ذات .

والذات هى شخصية متكاملة .

فإذا لم يكن لك شخصية متكاملة ، وخلاقية قادرة ، فأنت إنسان غير حر .

وإذا اكتملت فى شخصيتك مقومات إنسانيتك ، ولم تكن سلبيا ، ولك خلاقية تمارسها ، فأنت حر حتى لو كنت مغلوبا على أمرك ، أو كنت تُعذَّب ، أو تهان ، أو تستشهد . فأنت إنسان حر .

لقد ظلم الجانب الروحى لمدة طويلة .

والإنسان يحاول أن يبحث لنفسه عن متنفس .

وسيكون هذا المتنفس ـ فى الأغلب ـ عن طريق الشعوب غير المتقدمة اليوم ؛ كما تم أيام ظهور المسيحية والإسلام .

فالمسيحية لم تأت عن طريق الروم ولا الفرس، وهما الدولتان القويتان فى ذلك الوقت. . وكذلك الإسلام.

على كل حال لا أحب أن أتنبأ ولكنى أقرر أن حقيقة الوجود أو المبدأ الروحى فى طبيعة الأشياء أمر أساسى والمبدأ الروحى لا غالب له.

إن فترة الحضارة بالنسبة لعمر الإنسانية صغيرة جدا ومازال الإنسان مجتهدا ومبتدئا فيها ، وإدراكه لمعنى وجود الإنسان نفسه مازال إدراكا خطيرا لدرجة كبيرة، والشاهد على ذلك تلك الفوضى العارمة التى يعيش فيها العالم اليوم بما فيه الأمم المتحدة ذاتها رغم العلم الحديث والتقنية الحديثة.

كنا نقول إننا اليوم ثقافيا فى أسر هذا العالم المتأزم غير المصطلح مع نفسه الذى لا يؤمن بالمبدأ الروحى ولا بالقيم الأخلاقية. بينما منطلقنا من المسيحية والإسلام. فهذا البلد كان من حماة المسيحية والإسلام.

هناك علاقة بين الفنون الإسلامية والمتصوفة المسلمين؛

والمتصوف هو الإنسان المتحقق من المبدأ الروحى

عن طريق الخبرة المباشرة الذاتية، أى أنه

يرى الله ببصيرته وبقلبه حقيقة وليس

بالولادة أو بالسماع أو بالوراثة سواء كان

مسلما أو مسيحيا. . .

وسوف أتكلم من زاوية المسلم.

مرجع الإسلام هو القرآن وحياة النبى بما فيها أحاديثه. وفهم القرآن وفهم حياة النبى وأحاديثه ليسا أمرا سهلا. هناك جزء يقدر على فهمه كل إنسان بسيط، هو أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن كل الأشياء تسبح لله وتشير إليه. . هذا ما يمكن لأى مسلم أن يدركه. أما أن يحققه فهو الأمر الصعب. وتحقيقه يزداد عمقا كلما ازدادت ثقافة الإنسان وإن كان فى نهاية الأمر لن يخرج عن هذه المقولات إلا أنه سيتكلم بطريقة قد لا يفهمها العامى العادى.

وحين نثقف أولادنا دون هذه الأعماق وفى الوقت نفسه ننمى معلوماتهم من الناحية العلمية فإنهم لن يقدروا على المواءمة بين الاثنين.

وعندما مررت فى هذه الأزمنة فى مقتبل الشباب، وكان والدى شيخا متفتح الذهن، لم يغضب عندما صارحته بما ينتابنى من شكوك، بل أخذ يوجهنى بلطف حتى أجد طريقى بنفسى، وقد كان سعيدا كل السعادة عندما عدت إليه يوما لأخبره أننى قد وجدت الطريق أمامى واضحا.

ولما تخرجت وسافرت إلى الخارج بدأت أبحث فى معنى الديانات ومعنى الإسلام والمسيحية والبوذية والهندوكية والتاوية وكان الدافع إلى ذلك البحث:

١ - أنى ولدت مسلما فى بيت مسلم فى بلد متدين.

٢ - أنى وجدت الفنون الكبيرة الموجودة أمامى رأى العين فى متاحف لندن جواهرها الأساسية رؤى دينية ولا تفهم بغير فهم ثقافاتها الدينية.

٣ - الطبيعة التى كنت مشدودا إليها وأحس فيها بالإشعاع القدسى كلما تأملتها.

هنا كان لابد لى من البحث الجاد.

لذلك وجدتنى - فى لندن - فى أثناء بحثى أقرأ فى سلسلة كتب باسم حكمة الشرق فى كتاب للغزالى اسمه «كيمياء السعادة» «Alchemy of happiness» وقد قرأته فى الإنجليزية قبل أن أقرأه فى العربية كما قلت سابقا وعلم الـAlchemy أساسه روحى وهو الانتقال بالمعدن الخسيس إلى معدن نفيس أى تحويل الرصاص أو النحاس إلى ذهب. وهو يقصد هنا تحويل الإنسان غير المدرك لوجود القدسية إلى الإنسان المشبع بالقدسية.

والإمام الغزالى نفسه بعد أن وصل لقمة الأستاذية فى الشعائر والشرائع بدأ يسأل نفسه أين سنده فيما يدرّسه؟ أين خبرته هو؟.. ويبدأ يتشكك.. ثم انعزل سنين درس فيها المذاهب المختلفة ولكن ما رده مرة أخرى إلى الإسلام هم المتصوفة الذين يعتمدون على التحقيق بالخبرة الذاتية لمعنى أن لا إله إلا الله.. وأن حياة الإنسان فى التسليم له.. ولما عاد بدأ يكتب روائعه الكبيرة ومنها كتاب «المنقذ من الضلال» ويسمونه «اعترافات الغزالى» يحكى فيه كيف أوشك على الضلال وكيف أنقذه طريق الصوفية. وطريق الصوفية كما قلت ليس هو البوارق ولا الذكر ولا المظاهر التى نراها فى الموالد إنما هو علمية الإيمان؛ أن تؤمن عن طريق الخبرة الذاتية.

وأزكى ـ لمن لا يعرف الإسلام من غير المسلمين ويريد أن يعرفه ـ أن يقرأ «المثنوى» «لجلال الدين الرومى» . . ويسمونه قرآن الفرس ؛ لأن جلال الدين بعد أن قرأ القرآن ودرس حياة النبى وانعكاس القرآن فى ضمائر الآخرين الذين استوعبوه وعاشوه كأبى بكر وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصالحين كتب المثنوى .

وإذا أردت أن تعرف شيئا عن الديانات الكبيرة كالهندوكية أو البودية أو المسيحية تأملها فى ضمائر وحيوات الناس الذين أمكن أن يتساموا إلى إدراك أسرارها وعاشوها .

والمثنوية هم المولوية نسبة إلى مولانا جلال الدين الرومى الذين يذكرون بالناى ويقولون إن صوت الناى هو أنينها شوقا إلى أصله الذى انتزع منه . وهم فى ذكرهم يتمايلون كأعواد الغاب حين يميل مع الهواء والهوى هنا هو المحبة والموسيقى .

المهم أن جلال الدين قدَّم الإسلام على أساس الوجدان الإسلامى الذى يتولد من نفس حساسة عاشت الخبرة الإسلامية كما ينبغى أن تعاش .

ميزة أخرى وجدتها فى قراءتى للغزالى هى أنك كأنك تقرأ لإنسان معاصر ؛ هو ليس شاعرا كجلال الدين ولكنه مدرس ومعلم وفى الوقت نفسه رجل منطق عظيم وأستاذ فى الشرح والتعليم وأسلوبه فى ذلك رائع . وإنى كمعلم أجده مثلا أعلى للتعليم والشرح . .

وإذا كان «جلال الدين الرومى» يعبر عن إسلام المشرق الإسلامى فإن «ابن الفارض» هو الذى يعبر عن إسلام الشعب المصرى وضميره فى رؤيته لمعنى الإسلام . . أما فى المغرب الإسلامى فهناك «محيى الدين بن عربى» .

لماذا أهتم بهؤلاء؟ لأنى كما قلت أعتبر أن الفنون الإسلامية لا تعبر عن الشعائر والشرائع الإسلامية إنما تعبر عن الوجدان الإسلامى . من هنا كان فهمها يتأتى من وجدان إسلامى راق . فإذا تعرفنا على أساتذة الوجدان الإسلامى أمكننا إدراك شىء عن الفنون الإسلامية . . وأقول أساتذة الوجدان الكبار وليس الأدباء الكبار ، أما الأدب الصوفى فهو المعبر الحقيقى عن معنى الإسلام .

وهنا يشرح ابن عربى فنون المغرب الإسلامى التى نجدها فى فلسفته وفى مبالغات الفن الإسلامى هناك .

أما جلال الدين الرومى فيشرح المشرق الإسلامى فى فنونه التى يكسوها شىء من الجمال الفردوسى، خاصة فى العمائر المكسوة بالقاشانى الملون. تلك الفردوسية نلمحها فى الأدب الفارسى الصوفى بعامة وفى جلال الدين بخاصة. أما السمت المتين وفى الوقت نفسه الشاعرى والأخلاقى والبعيد عن السفسطة الفلسفية والملىء بالتعبير، فإننا نراه فى ابن الفارض وفى قاهرة الألف مئذنة. والمئذنة تعنى الحب الصوفى.. تعنى تطلع الأرض إلى السماء.

و«ابن الفرض» ـ ويسمونه سلطان العاشقين ـ يعبر عن معنى القاهرة، وأقول

إننا إذا أردنا فلسفة جمالية أصيلة

لفنون مصر الفرعونية والمسيحية والإسلامية،

فلن نجد أحسن من قصيدة نظم السلوك

«لابن الفارض» وهى فى أكثر من ٧٠٠ بيت

فيها جوهر الروح الدينية كما تجلت لقلب عظيم.

١١ ـ وماذا بعد؟

وماذا بعد؟ عُرض هذا السؤال فى صورة أخرى على جامعة الدول العربية تحت عنوان إحياء التراث.

وكلمة إحياء التراث، وكلمة الأصالة، والمعاصرة، وتدعيم بناء الشخصية القومية أو المصرية، ممكن أن تكون مجرد شعارات، وممكن أن تشير إلى مسائل تبلغ من الأهمية مبلغا كبيرا. ويتوقف الأمر على فهم المقصود.

فى آخر اجتماع للجنة من لجان جامعة الدول العربية قبل انتقالها من القاهرة إلى تونس، والذى كان ممثلا فيه بعض الأصدقاء من الدول العربية الشقيقة، وكان الاجتماع بناء على دعوة منى فى مركز الفن والحياة فى جزيرة الروضة على أساس أنه من المهتمين بالدعوة فى صورة عملية تجمع بين الفكر والفعل، وأن المركز فى ذلك الوقت كان يمثل آخر مرحلة من مراحل هذا السعى، وكان من الممكن ومن الميسور للزملاء أن يشاهدوا على الطبيعة مفهوم مجموعة من المجتهدين فى فهم معنى إحياء التراث...

فى هذا الاجتماع تقدمت باقتراح أن يوجد مركز لإحياء التراث فى كل قطر من الأقطار العربية على أساس من وعى لكل بلد.

إن المطلوب من كل قطر عربى أن يستعيد الوعى
بمنجزات تراثه.. ويدرك ـ باجتهادات ذاتية ـ معنى
المعاصرة، ويمارس الخلاقية فى صيغة حوار بين
روح العصر وروح التراث.

بهذا الشكل يكون التراث قد أصبح حيا فى وعى وفكر وعمل مجموعة من أصحاب هذا التراث من جهة.. وجزءا من تيار الفكر العالمى المعاصر من جهة أخرى.. وذلك عن طريق البداية بنشر أعمال معينة من منجزات التراث ومن الاجتهادات الجديدة على شرط أن تكون هذه المنجزات مما يهم أمرها الناس فى حياتهم على أوسع نطاق فى الداخل وفى خارج البلاد العربية: أى أن تصبح القضية قضية عالمية.. وأن يكون العمل جامعا بين البحث التاريخى، والبحث فى الجماليات الفلسفية وغيرها لفنون التراث، وفى الناحية العلمية التطبيقية من ناحية التقنية.. لأن هناك مسائل كانت معروفة من قديم نجهلها اليوم..

ورغم التقنية الحديثة فإننا لا نعرف كيفية استعادة تنفيذها.

مستخدمين الوسائل المختلفة فى الناحية الإعلامية من صوت وصورة وسينما وكتب.. وأن يكون هذا النشاط كله حول محور واحد بسيط وأساسى بالنسبة لحاجيات الإنسان.. وأن يدعى إلى الإسهام فى هذا الجهات الرسمية والجهات الشعبية والمصانع الحرفية والمصانع الآلية من أدناها إلى أعلاها..

وأن تكون المنجزات فى ميسور من يريد.. وأن يكون العمل بعيدا عن بيروقراطية الموظفين.

بذلك تكون دعوة جماعية عالمية ممكن أن تحتذى فى سائر الأقطار؛ عربية وغير عربية، كأمر مطلوب اليوم لإثراء حصيلة الإنجاز الفنى، والعمل على انتشار مراكز الإضافة والخلاقية فى أنحاء العالم، منبثقة من مختلف الجذور المحلية ومتفقة فى هدف واحد هو إثراء حياة الإنسان المعاصر اليوم فى كل مكان.

طبيعى أننا كنا نقدم مثل هذا العمل، بهذا المقياس الواسع باعتبار أن القائمين على المشروع كانت الدول العربية. وجامعة الدول العربية لديها من الوسائل المادية

ما يكفى لمساندة هذه القضية كما سبق أن ساندت إقامة العرض العالمى للفنون الإسلامية فى لندن عام ١٩٧٦ بما أسهمت به فيه من المعروضات ومن الاقتصاديات ومن استكتاب الخبراء من مسلمين وغير مسلمين.

وكانت بعض الكتب التى شاهدناها فى الأسبوع الأخير هنا من ثمار هذا المجهود.

ما المسائل التى تهم كل الناس فى كل مكان؟

هى مسائل تتلخص فى الفنون الآتية:

الإناء.. الكساء.. البناء.. والكتاب لا ينبغى أن يستغنى عنه إنسان. والأثاث يمكن أن يتبع البناء.. والزينة الشخصية يمكن أن تتبع الكساء. فى هذه المحاور، أعطت بلاد الشرق القديم بما فيها مصر. عبر العصور..

ومن قبل أن يوجد التاريخ فهناك عطاءات رائعة فى تراث الإنسان الثقافى ابتداء من الأدوات الظرانية فى العصور الحجرية القديمة، فالأوانى وبذور فنون الزينة والأثاث والعمارة فى العصور الحجرية الحديثة مع اكتشاف الزراعة.

وبعد ذلك فى فنون الجمع بين الكلمة والصورة والبناء وفنون النحت والتصوير والكتابة، أعطت عطاء غنيا وله ثمار ثقافية لاتبارى، اللهم إلا فى بلاد الصين واليابان والهند.

أما فى أوروبا فإن عطاءها الفنى ـ بعد انتهاء فترة عصر النهضة ـ غادر تيار الحياة الأساسى وانكمش منحسرا على هامش الحياة. أما ما قبل النهضة بما فيها عصر النهضة ذاته فإن الفنون الأساسية فيه بمعنى الإناء والكساء، فإنها لم تبلغ ذلك المبلغ العظيم الذى بلغته فى العالم القديم.

فإذا كان التركيز على هذه الفنون الأساسية

التى تمثل العطاء الأساسى للعالم القديم لإثراء

حياة الإنسان، كان فى ذلك نفع مطلوب

يستفيد منه الإنسان المتقدم اليوم، كما تستفيد

منه البلاد النامية سواء منها من كان له ماض حضارى عميق أو من لم يكن لها ذلك العطاء.

والبلاد المستعدة لتنفيذ هذا الفكر ستكسب إلى جانب المكسب الثقافى مكسبا اقتصاديا أيضا. فلنتصور - على سبيل المثال - صناعة النسيج فى مصر: هى صناعة محترمة على المستوى العالمى ولكن القيمة الفنية المعنوية لتصميماتها مستعارة من تصميمات ضعيفة من عواصم العالم المتقدم اليوم. فإذا أمكن أن تعى المصانع المحلية أهمية نشر مجموعة كبيرة فى القدر والقيمة والكم وتعمل على تسويقها فى الخارج فإنها تخدم بذلك اقتصادها وتخدم الدعوة القومية والسياسية فى الوقت نفسه.

نفس الشيء إذا أمكن نشر مجموعة من الأوانى خاصة إذا تذكرنا أن يصاحب هذا مجموعة من المطبوعات تؤرخ وتشرح أساسيات الفلسفة الجمالية المستقلة عن الفلسفة الجمالية السائدة.. ويصحب ذلك كما قلنا اجتهادات الإعلام بوسائله المتعددة.

وإذا صاحب ذلك حركة نحو تصحيح مسار التعليم حتى يكون العمل صاحب النوعية الخاصة التى أنجزت الروائع فى فنون الحياة الأساسية فى هذا الجزء من العالم من قديم قادرا اليوم على أن يعطى هذه البلاد وكل بلاد تمثله مستقبل تراث جديد.. نوعية من العمل لا يختزل فيها الإنسان، بل يعمل بمجموع كيانه وبدفعة ماضيه وبكل إمكانيات حاضره وتمثيل ذلك كله وحصيلته فى منجز يستخدمه الإنسان فى حاجاته الضرورية اليوم؛ لأن الفرق الكبير بين منجزات العصر فى الفنون الأساسية ومنجزات الإنسان القديمة هو القيمة: القيمة الإنسانية المسلوبة من معظم الإنجاز المعاصر المتقدم علميا.. والثرى ماديا.. والفقير جدا معنويا، بينما الفنون الأساسية للإنسان فى شتى أنحاء الأرض وبعامة كانت مترعة بالقيمة يحسدها عليها إنسان البلاد المتقدمة الواعى اليوم.

والسر الأساسى يكمن فى الإنسان ذاته.

الإنسان اليوم مختزل وأسلوب العمل يستعبده

بدل أن يحرره، ونحن ندعو إلى إنسانية

الإنسان وإنسانية العمل.

هذه دعوة أصدقاء الفن والحياة أو محورها.

وليس لدينا إمكانيات جامعة الدول العربية.. لكنا أعزاء بإيماننا وبعملنا وبعمق تفكيرنا، وبإصرارنا وعدم يأسنا الذى ليس له حدود.

الدعوة ليست دعوة سلفية، بل هى

دعوة تقدمية بالمعنى السوى.

وهى ليست دعوة إقليمية بل هى

دعوة لأن يعطى الكل للكل.

من أعماق الطاقة التاريخية

والدفعة إلى الحرية

والخلاص من

التبعية.

خاتمة

* فن الناس تعبير عن وجدان الناس .


* ومن الناس من لا وعى له بوجود مبدأ روحى .

* ومن الناس من لا يرى فى الحياة غير هذا المبدأ الروحى . وهؤلاء قليل .

* ويدعو الإسلام الناس ، كافة الناس ، إلى رؤية هذا المبدأ أينما تولوا .

* الفن الإسلامى شرح للوجدان الإسلامى.
* وهذا الشرح مكتوب بلغة فطرية هى لغة التشكيل.
* بينما لغة القرآن هى اللغة العربية، فإن لغة الطبيعة؛ كتاب الله المرئى، هى لغة التشكيل.
* ولا غنى لمن يريد التواصل مع الوجدان الإسلامى من التفقه فى كل من اللغتين.
* ولكن المفتاح الأساسى لهذا الفقه هو نور يقذفه الله فى قلوب من أنعم عليهم.
* وهذا النور هو ما نسميه الخبرة الدينية.
* والتربية فى هذه الخبرة يمهد لها الفن الإسلامى.
* وقد شمل الفن الإسلامى كل نواحى الحياة التى عاشها الناس فى المشرق والمغرب وما بينهما هنا فى مصر وما حولها.
* شمل الكتاب والبناء والإناء والكساء وعم أريجه العالم الإسلامى.
* وجوهر هذا الأريج شعور غامر بالقداسة وحَّد بين الجميع وجمع بينهم دون أن يلغى شخصياتهم.

المحتويات



6 221102 005012